الفصل التاسع

نيجيريا

"أمة واحدة، في عناية الله"

في ربيع سنة 1999 احتفل النيجيريون بانبعاث الديمقراطية في بلادهم بعد خمس عشرة سنةً من القمع العسكري والشِّدة الاقتصادية. وكان واضحاً أن النظام الجديد، حتى قبل الاحتفالات الرسمية بانتقال السلطة، كان يراهن بمستقبله على استنباط رابطةٍ مشتركةٍ مستمدةٍ من الدِّين – وهو ما يرى فيه كثيرٌ من النيجيريين أضعفَ رابطٍ يجمعهم.

وفي حين كان الرئيس المنتخَب ألوسيغون أوباسانجو Olusegun Obasanjo يتأهَّب للاضطلاع بمهام الرئاسة، أخذ التلفاز النيجيري يُدخِل ضمن برامجه المسائيةِ مشاهد موسيقيةً خاصة مالبثت أن أصبحت الرمزَ غير الرسمي لمرحلة الانتقال إلى الديمقراطية. وكانت المطربة الشعبية أونيكا أونوينو تظهر في كل ساعة تقريباً مع فرقة أوركسترا كاملة وهي تنشد ترتيلة شكرٍ ممزوجةً بترنيمةٍ وطنية، مخاطبةً النيجيريين بمختلف معتقداتهم: "أمة واحدة، في عناية الله"، وكأن لسان حالها يقول: "ها أنتم قد تحرَّرتم من كابوسٍ طال جثومه على صدوركم، وكان خلاصكم بفضل القوة الداخلية التي كنتم تستمدّونها من ثقتكم بالله." وفي سياق عرض لقطاتٍ مصوَّرةٍ للكنائس

والمساجد في طول البلاد وعرضها راحت أونيكا تردِّد لازمتها التي تبعث الطمأنينة: "لقد مررنا بأوقاتٍ عصيبة، لكن الله كان يهدينا دوماً إلى الطريق. إن قوتنا تكمن في تنوعنا إذ نشهد يوماً جديداً."

في الوقت نفسه ظهر مطربٌ شابٌّ متحدٍّ ينكر أن يكون أي شيءٍ قد تغيَّر. إنه نجم الراب النيجيري اللامع تشارلي أو Charlie O الذي أطلق على احتفالات انتقال السلطة اسم "حفلة الأغنياء"، لأن العامة من الناس سيضطرون إلى متابعتها على شاشات التلفزة، لأنهم لن يستطيعوا احتمال نفقات الإقامة ليومين في أبوجا Abuja، العاصمة الجديدة ذات الغلاء الفاحش. وقد علَّق تشارلي ساخراً بالقول إن الآلاف من سكان أبوجا قد أُجبروا على مغادرة المدينة طوال أيام الاحتفالات، لأن المنازل التي يسكنونها قد خصَّصها مُلاّكُها لإقامة "الوجهاء" الزائرين من علية القوم. لقد أخذ الرئيسُ الجديد على نفسه محاربةَ الفساد، لكن مغنّي الراب الغاضب حذَّر الإدارةَ الجديدة من أن تنحو في انطلاقتها منحىً خاطئاً، وقال إنه سينتظر ليرى نتيجة الوعود: "نريد السلطةَ في يد الشعب؛ هل تسمعني سيدي الرئيس؟"

ومع أن الصورة الحديثة للعاصمة أبوجا غنيةٌ بمعالم دينيةٍ متعدّدة، إلا أن هذه المعالم تشهد لتشارلي بوجود تفاوتٍ اجتماعيٍّ بعيد العهد، خلافاً لما يراه الرئيس أوباسانجو من تناغمٍ اجتماعي. ففي غمرة احتفالات العاصمة بانتقال السلطة، مرَّت الحشود ببيتين للعبادة يرمزان إلى مدى التفاوت في السلطة بين المسلمين والمسيحيين.

ويعدّ المسجد المركزي في أبوجا درّةً معماريّةً نفيسةً تسرّ الناظرين، بقبَّته الذهبية المبنيّة على الطراز العربي، ومآذنه السامقة التركية الطراز، وواجهته الرملية المراكشية الصبغة بقرميدها الأزرق الفارسي المثال. هذا المظهر الخارجي الفخم يفضي إلى داخلٍ بسيطٍ لافتٍ في بساطته وجوٍّ من العزلة والطمأنينة في آنٍ معاً. ولا بدع في أن يجتذب هذا المزيجُ المصلِّين ويحملهم على الشعور بالخشوع والسكينة منذ لحظة دخولهم الحرم.

وعلى مقربة من المسجد ينتصب هيكلٌ صَدِئٌ لكاتدرائيةٍ غير مكتملة البناء، شرعت الكنائسُ النيجيريةُ بتشييدها في الوقت الذي بدأ المسلمون فيه بناء المسجد المركزي. ففي مطلع عقد الثمانينيات من القرن الماضي قدَّمت حكومةُ شيهو شاغاري منحتين متساويتين من الأرض والمال للمسلمين والمسيحيين، بحيث يتمكن كلٌّ منهما من إشادة مركزٍ دينيّ وسط مدينة أبوجا. إلا أن قادة المسيحيين أرجؤوا بناءَ الكاتدرائية بسبب خلافٍ على تصميم المجمَّع واستعماله. على أنهم ما إن توصلوا إلى اتفاق حتى كانت تكاليفُ البناء المتصاعدة قد استنفدت المخصَّصاتِ الماليةَ الممنوحة، فاضطرّوا إلى تعليق عملية استكمال البناء إلى أجلٍ غير مسمى. ومرَّت خمس عشرة سنة والكاتدرائية مازالت كتلةً إسمنتيةً تبرز منها قضبانٌ حديديةٌ يلفُّها الصدأ ويعلوها إطارٌ مجوَّفٌ لبرجٍ مفترَض وصليب رفيع. وهو من المشاهد التي تدعو إلى الأسى حقاً وتنبو عنها العين في أبوجا، بل إنه يمثِّل أكبرَ إخفاقٍ مأساويٍّ لرجال الكنيسة كما يرى كثيرون منهم.

وكثيراً ما كنتُ أسمع من المسيحيين أنفسهم أن مرأى المسجد العامر مقارنةً بمشهد الكاتدرائية الفارغة دليلٌ على عدم كفاءتهم السياسية. وقد سمعتُ هذا النقد الذاتيَّ شخصياً من عددٍ كبيرٍ من كبار رجال الكنيسة والسياسة وأبناء الأبرشيات، ممَّن عقدوا العزم على توحيد صفوف جماعاتهم المنقسمة لتأليف نفوذٍ له وزنه إزاء السيطرة الإسلامية على الحكم والفعاليات الأخرى.

ومع أن قادةَ المسيحيين يعتقدون أن طريقاً طويلاً يفصلهم عن تحقيق التعادل السياسي مع المسلمين، فقد حسموا ما كانوا يعدّونه منذ زمنٍ طويل أنموذجاً بغيضاً للتمييز الديني يتمثَّل في إتاحة حجٍّ ترعاه الدولة للمسلمين دون المسيحيين. فأصبحت الحكومةُ التي موَّلت بناء مسجدٍ وكاتدرائية أبوجا نفسُها منقادةً لمطالب المسيحيين في تقديم مساعداتٍ عامةٍ للحجاج

القاصدين كانتربري ولورد وروما وبيت المقدس. وهكذا تمكَّن المسيحيون شيئاً فشيئاً من إقناع الحكومة بإحداث مجلسٍ وطنيٍّ لشؤون الحج المسيحي يقوم بتوفير الخدمات عينها التي يتمتع بها المسلمون منذ سبعينيات القرن الماضي.

واليوم يشترك مجلسا الحج الإسلامي والمسيحي في مقرٍّ واحد يقع على مقربةٍ من فندق أبوجا شيراتون. على أن الحج المسيحي مازال محدوداً قياساً بالحج الإسلامي، إذ لا يتجاوز عدد الحجاج المسيحيين 3000 حاج سنوياً مقابل نحو 20.000 حاجٍّ مسلم. ومع ذلك فقد صار بإمكان المسيحيين – وللمرة الأولى – أن يزعموا بحقٍّ أنهم باتوا في وضعٍ مؤاتٍ. وفي أقل من عشرين عاماً تطوَّر الحجُّ المسيحي من مزيجٍ من الطوائف ينطلق في اتجاهاتٍ مختلفةٍ في أوقاتٍ مختلفة، إلى رحلاتٍ رسميةٍ منظَّمةٍ إلى بيت المقدس بتنسيقٍ بين الحكومتين النيجيرية والإسرائيلية. وفي ذات الوقت تقلَّصت فعالية الحج الإسلامي النيجيري إلى ما دون 100.000 حاج كانوا يقصدون مكة المكرمة في كل سنةٍ من أواخر سبعينيات القرن الماضي عندما كانوا يؤلِّفون واحداً من أكبر وفود الحج في العالم.

لم يكن هذا التقلُّص في فعالية الحج الإسلامي نتيجةً لتدهورٍ اقتصاديٍّ وحسب، بل لجهودٍ مدروسةٍ قامت بها عدّة حكومات وتهدف إلى الحدّ من السفر الديني المقصد بين المسلمين، وتشجيعه بين المسيحيين بغية تهدئة موجة الاستياء المسيحي من نزعة التحيُّز التي أظهرها حكّام نيجيريا للإسلام وأهله منذ عصور الاستعمار. وكان ساسةُ المسلمون يرغبون أيضاً في أن يكفَّ المسيحيون عن إطلاق تفسيراتٍ متزمتة للعلمانية ماداموا قد استفادوا من المعونة التي تقدّمها الدولة للمسلمين. على أن إيجاد مثل هذا التوازن مالبث أن أثار نزاعاً يومياً بين حركات الحج المتنافسة، رافق الصراعَ القائم طلباً للسلطة.

يربط القادة المسلمون والمسيحيون بين الحجِّ من جهة والتحوُّل الديني والطموح السياسي من جهةٍ أخرى، وقد اطَّلعتُ بنفسي على مقتطفاتٍ من

خُطَب أحمدو بيلو Ahmadu Bello (الزعيم الروحي والسياسي لشمال نيجيريا، الذي أدى اغتياله على يد ضباط من جيش الجنوب في سنة 1966 إلى نشوب الحرب الأهلية) معروضةً في مكاتب الحج. يُذكَر أن مدير الحج في أبوجا، وهو مواطن من ولاية كانو يحمل درجة الدكتوراه في علوم السياسة من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، وقع اختياره على مقطعٍ مشهورٍ من أقوال بيلو يطلب من شباب المسلمين ألاّ يعتقدوا أن تقدُّم الإسلام منوطٌ بوجوده، ويقول إن جيل الشباب خليق بمتابعة حملته لتحقيق شعار: "شمالٌ واحد، شعبٌ واحد"، يقصد أن إقليم الشمال موحَّدٌ بالإسلام ويحافظ على ميزان القوى في البلاد. أما في كانو فقد اختار موظفو مكاتب الحج نصّاً آخر أكثر إيحاءً تطلَّع فيه بيلو إلى اليوم الذي سيصبح فيه جميع النيجيريين مسلمين، وأعلن أن الإسلام هو "الدين الأمثل" لأنه يدعو إلى الأمانة والعمل الجادِّ اللازم لجعل نيجيريا أمةً قوية. وأضاف أخيراً: "إن السياسة والدين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه، وإن من دواعي فخري واعتزازي أن أمارسهما معاً."

كذلك يعبِّر القادةُ المسيحيون صراحةً عن دور الحج في ربط الدين بالسلطة، ويستعينون لهذه الغاية بالخرائط والمصورات إضافةً إلى البيان. وقد أدّى رئيسُ الأساقفة الأنغليكاني في أبوجا دوراً هاماً في إقناع الحكومة بإحداث هيئةٍ لشؤون الحج المسيحي. ومع أنه هو شخصياً يشعر أن الحج ليس ركناً ضرورياً في الديانة المسيحية، فقد طالبَ برعايةٍ حكوميةٍ للحج المسيحي كخطوةٍ إلى الأمام لتحقيق المساواة مع المسلمين.

وفي أثناء حديثنا استعان هذا الأسقف مرتين بخريطةٍ جدارية كبيرة ليصوِّر كيف أن الطائفة الأنغليكانية اخترقت بسرعة منطقة الحزام الأوسط المتعدِّدة الثقافات والمناطق الإسلامية في الشمال. وذكَّرني بأن رجلَ دينٍ مسيحياً انتُخب حاكماً لمنطقة بينيو، وأن زعيماً مسيحياً آخر فاز في مسابقة

اختيار حاكمٍ لمنطقة بلاتو، وأن مسيحياً آخر أصبح نائب الحاكم في كادونا. ثم إنه أطلعني على الكنائس والأسقفيات التي أنشئت في سوكوتو، وكاتسينا، وكانو، وبوتشي، وبورنو. ثم تساءل: "أين الشمال الإسلامي الآن؟ لم يعد له وجود."

وبعد بضعة ايام استعمل مديرُ الحج المسيحي خريطته الجدارية ليقتفي عملية المدِّ والجَزْر في التحوُّل الديني. ولما طلبتُ منه أن يبيّن لي تطوُّرَ الحج المسيحي، راح يتحدث عن مجالس الحج باعتبارها نتيجةً لجهود أحمدو بيلو التبشيرية في منطقة الحزام الأوسط. اعتقدتُ - في البداية - أنه افترض خطأً أنني كنتُ أسأل عن حج المسلمين، إلا أنني سرعان ما أدركتُ أن كل هذه الأحداث قد كوَّنت - برأيه - عمليةً واحدةً من الأخذ والردّ بين المسلمين والمسيحيين شملت شتى المناطق ومختلف مظاهر الحياة العامة.

وقد بدا مديرُ الحج المسيحي حريصاً على الإشارة إلى أن الكثيرين ممَّن تحوَّلوا إلى الإسلام في عهد أحمدو بيلو كانوا مكرهين، وأن البعثات التبشيرية بعد الحرب الأهلية استعادت زمامَ المبادرة وأعادت آلافَ المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام بالاسم فقط إلى الكنائس الجديدة، ثم أشار إلى أعلى الخريطة ومسح بيده نحو أسفلها ليصوِّر الاندفاع السريع للمسلمين إلى المعاقل الروحانية في وسط نيجيريا. ثم رفع يده ببطء إلى أعلى الخريطة مقتفياً حركةَ المسيحيين المعاكسة والثابتة إلى الشمال.

وهو يرى أن الحج - الإسلامي والمسيحي على السواء - كان سلاحاً في هذا الصراع، وأن مجالس الحج الإسلامية هي من ميراث الحملات الإسلامية في حقبة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. على أن دعم الدولة لرحلات الحج المسيحي قد آذن بتراجع الزخم الإسلامي في غضون عقد الثمانينيات. وقد أظهر التنافس بين حملات الحج إلى مكة المكرمة وبيت المقدس منذ تسعينيات القرن الماضي أن المسيحيين قد تعلَّموا أخيراً كيف يتّحِدون وصولاً إلى المساواة في الحقوق.

"الحج ليس للجميع"

تتَّصف إدارة الحج في نيجيريا بأكثر من نصيبٍ عاديٍّ من الخصوصيات غير المألوفة. ومن أكثر الظواهر التي أدهشتني حقاً في الحج النيجيري أن إدارة الحج هناك لا ترغب في إرسال أعدادٍ كبيرةٍ من الحجيج إلى مكة المكرمة؛ بل إن المسؤولين فيها هم أشبه بحرّاسٍ أشدّاء يشطبون اسم أي متقدِّمٍ يعدّونه غير لائق للحج أو يمكن أن يشوِّه سمعةَ نيجيريا في الخارج. والحقيقة أنني لم أسمع قطُّ بدولة أخرى تبذل مثل هذا الجهد في التدقيق في طلبات الحج، أو يتَّسم فيها الحجُّ بمثل هذه الدرجة العالية من المحسوبية في اختيار الحجاج.

ولهذا التثبيط الرسميِّ للحج تاريخٌ طويلٌ في نيجيريا. ففي المرحلة التي سبقت الاستعمار، جرت سَلطنتا بورنو وكانيم على رعاية رحلات الحجّ على نطاقٍ واسع، في الوقت الذي كانت تفرض فيه سَلطنتا فولاني وهاوسا - المجاورتان غرباً - قيوداً على السفر لمنع الجماعات التي تعرَّضت للغزو من الهرب باتخاذ الحج ذريعةً للهجرة الجماعية[1]. وكان البريطانيون يرتابون من أيِّ احتكاكٍ دولي قد يعرِّض المسلمين النيجيريين للتعصب الذي كان يتربَّص بهم في السودان. وبدافعٍ من خشية الإدارة الاستعمارية من أن يكون الحجاجُ العائدون سبباً في توليد أتباعٍ يحاكون المهدي، فقد استمرت تلك الإدارة في إحكام قبضتها على فعالية الحج، فاستصدرت قوانين وقواعد طبيّةً ومالية شبيهةً بتلك الإجراءات التي اعتمدها حكّام نيجيريا المستقلة فيما بعد[2].

حتى إن أحمدو بيلو نفسَه رأى أن رقابة الدولة على الحج وسيلةٌ تمكِّن الحكومةَ الاتحادية من التحكُّم في سلوك الحجاج خارج نيجيريا. وقد أراد بيلو بادئ بدءٍ أن يكبح النزاعات القائمة التي تتصل بملايين "الحجاج الدائمين" الناطقين بلغة الهاوسا، والمشتَّتين على امتداد الطرق البرّية إلى المملكة العربية السعودية بين تشاد وإثيوبيا[3]. وقد لاحظ بيلو - بحكم سفره

المتكرر إلى مكة المكرمة – أن الصفة الملازمة للحجاج النيجيريين جميعاً هي التسوُّل وإثارة الشغب بسبب الفقر وتفشِّي الجريمة بين صفوف الحجاج غير الخاضعين لإشراف الدولة. وقد شعر بيلو بالاشمئزاز والخزي لدى رؤيته مجموعةً من الحجاج النيجيريين في منى يهاجمون نصب الجمرات الحجرية على أنها الشيطان بعينه وليست رمزاً له[4]. وكان من شأن هذه الوقائع أن تقنع بيلو وأتباعه بضرورة الأخذ بالحزم والتدقيق في اختيار المتقدِّمين للحج درءاً لمثل هذه المساءات التي تشوّه سمعة البلاد برمَّتها.

والواقع أن جوهر عملية "الغربلة" هذه هو معرفة مدى الأهلية أو "الاستطاعة" للحاج، وهي حيازة الحدِّ الأدنى من متطلبات الحج التي أقرّها فقهاء المسلمين منذ قرون بشيءٍ من الخلاف. وتُجمِع المذاهبُ الفقهيةُ المشهورة على أن الحجَّ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ عاقلٍ بالغٍ يملك من المال ما يكفيه ويسدّ حاجة عياله في غيابه. يشار هنا إلى أن مديري الحج في نيجيريا أدخلوا إضافاتٍ على هذه الشروط غير مرة، ومنحوا أنفسهم فسحةً من حرّية التصرُّف والاجتهاد الشخصي والتطبيق القائم على التمييز.

ولعلّ أعقد نظامٍ لانتقاء الحجاج في نيجيريا هو النظامُ المتَّبع في مدينة كادونا، حيث يُجري مديرو الحج مقابلاتٍ شخصيةً مع المتقدِّمين بطلبات الحج. ويُعهَد التقويمُ إلى لجنةٍ مؤلَّفةٍ من ضباطٍ ورجال شرطةٍ وأمن، وأطباء ورجال دين وممثِّلين عن الصحافة والمؤسسات النسوية وأرباب الأعمال والمتقاعدين. تعطي اللجنةُ كلَّ مرشَّحٍ علامةً تقع بين الواحد والعشرة تُقدَّر بناءً على عاملَيْن: "المعرفة الدينية" و"الشخصية الذاتية". أما الجزء المتعلق بالمعرفة الدينية فهو اختبارٌ شفهي يتناول شعائرَ من قبيل الوضوء والطهارة والصلاة وفاتحة الكتاب. وقد لوحظ أن 10 بالمئة من المتقدمين يخفقون في هذا الاختبار كلَّ عام، ويترتَّب عليهم في هذه الحالة اتّباع دورةٍ دينيةٍ على نفقتهم الخاصة، استعداداً للمثول أمام اللجنة من جديد في القابل.

وأما الجزء الآخر المتَّصل بالسيرة الذاتية فيتحرّى السجلَّ الجنائي للمرشَّح، وديونه غير المسدَّدة، والمشكلات الصحّية التي قد يعاني منها. وتستقصي اللجنةُ دلائل قد تفضي إلى قراءة نيَّة الحاجِّ العتيد في الإقامة في المملكة العربية السعودية بعد انتهاء مدة تأشيرته وعدم العودة إلى نيجيريا. وقد تطرح على المتقدم أسئلة صريحة عن صِلاته بجماعاتٍ مدرجةٍ على اللوائح السوداء. يُذكر أن أعضاء الطائفة الأحمدية - الذين يُعدّون خارجين على الدِّين في نيجيريا والمملكة العربية السعودية على السواء - لا يؤذن لهم بالحج، في حين لا يُستثنى أعضاءُ حركة أنور، وهي شعبةٌ معتدلةٌ من الأحمدية تعترف بصدق نبوة محمد ﷺ.

ويتعيَّن على الذين يجتازون شِقَّي المقابلة أن يوقِّعوا على صكٍّ تعهّد بحسن السلوك وبتجنُّب قائمةٍ طويلةٍ من الأنشطة كالمشاركة في التظاهرات السياسية والتهريب وتعاطي المخدرات والتسكع والتسول والنوم في الأماكن العامة، وتعاطي التجارة غير القانونية، وجلب بضائع أجنبية إلى نيجيريا[5].

وتُعدّ عمليةُ انتقاء الحجاج في كادونا - بكل تعقيداتها - معتدلةً إذا ما قورنت بإجراءاتٍ أكثر صرامةً تطبَّق في دوائر حجٍّ أخرى. ففي الإدارة العامة في أبوجا اختصر نائبُ المدير العام للحج المسألةَ عندما أعلن: "إن الحج ليس للجميع؛ وعلينا توخي الدقة في اختيار مَن نرسلهم إلى الحج. وإذا هم استغلُّوا الحجَّ لأغراضٍ غير مشروعة، فلا بدَّ من محاسبتهم". ثم إنه عرضَ عليَّ خطابَ ثناءٍ تلقّاه من مكتب الرئيس لابتكاره نظامَ مقاضاةٍ خاصّاً سمِّي "محاكمَ الحجّ". وإذ إن فكرة تطبيق العدالة السريعة على الحجاج المخالفين مقبولة من حيث المبدأ، إلا أن البلاد باتت تغصُّ بالمحاكم غير الدستورية، وهي تخضع لإشراف الجيش دون غيره. وقد أكّدَ لي صديقي أن المحاكم الجديدة تقوم بعملها على ما يرام في كانو حيث تمسُّ الحاجة إليها، إلا أنه أقرَّ على الفور أن ابتكاره محكومٌ عليه بالبوار في مرحلة الانتقال إلى الديمقراطية، لأنه - كما قال - يتعارض مع قواعد القانون.

ولم يتوانَ مديرو الحجِّ المسيحي بدورهم في وضع إجراءات اختيار للحجاج المسيحيين أكثر تشدُّداً من نظام الانتقاء الإسلامي. وقد صرَّح رئيس لجنة الاختيار أن التعقيد في عملية انتقاء الحجاج المسيحيين ناشئ عن علاقةٍ مباشرةٍ للحكومة الإسرائيلية؛ إذ لوحظ أن عدداً من الحجاج النيجيريين يقيمون بصورةٍ غير مشروعة في إسرائيل، وهذا ما حملَ السلطات في القدس على الذهاب إلى إجراء مقابلةٍ شخصيةٍ مع الزوّار الوافدين من نيجيريا مقدَّماً. ففي كلِّ سنةٍ ترسل إسرائيل لجنةً قنصليةً إلى لاغوس وأبوجا وبورت هاركورت لمقابلة الحجاج المرشحين الذين اعتمدتهم مجالسُ الحجِّ المحلّية، علماً بأن السلطات الإسرائيلية ترفض منحَ تأشيرات حج لنيجيريين تحت سن الخامسة والأربعين بحجة أن الشباب أكثر نزوعاً إلى تجاوز مدة الإقامة بحثاً عن فرص العمل بسبب ندرتها في وطنهم.

أسواقٌ حرَّةٌ وحجّاجٌ مخالِفون

أدهشني القائمون على إدارة فعالية الحج في نيجيريا بإشارتهم المستمرة إلى الاقتصاد، في حين يتحدَّث المسؤولون عن الحج في ماليزيا وإندونيسيا كثيراً عن استثمار المال، لا عن اتّباع سياسةٍ اقتصاديةٍ بقصد التأثير في سلوك الحجيج. ففي ماليزيا وجدتُ المدار على إدارة ملفّات؛ أما في نيجيريا فمعظم المناقشات تتمحور على إدارة البشر وتوفير الحوافز لهم.

والتدريب في مجال الاقتصاد أمرٌ شائعٌ بين الموظفين في نيجيريا. ففي كانو ماانفكَّ المسؤولون عن فعالية الحج ينتقدون وكالتهم لتأرجحها بين استراتيجيات السوق وتطبيق القانون تطبيقاً مباشراً. وقد دفعني ما رأيتُ منهم إلى استقصاء خلفياتهم الأكاديمية، فتبيَّن لي أن المديرَ يحمل درجة الماجستير في علم الاقتصاد، وأن نائبَه يعمل مدرِّساً للاقتصاد في المدارس الثانوية.

على أن التخصُّصَ العالي في ميدان الاقتصاد ليس شرطاً لازماً لمنصب الإدارة بحالٍ من الأحوال، بدليل أن مَن أوجدَ محاكم الحج في أبوجا – وكان

طالباً يدرس الفقه الإسلامي – هو الذي أدخلَ أحدثَ دراسةٍ متطوِّرة لتحليل سوق الحج النيجيري؛ بل إنه أعدَّ، في إطار المناقشات المستمرة بين كبار مديري الحج فيما يتَّصل بالإصلاحات المستقبلية، تقريراً متكاملاً ولافتاً أثبت فيه تفصيلات تقديرية لشرائح السوق ونماذج من "المستهلكين" من مختلف طبقات المجتمع، إضافة إلى خططٍ مقترحة لتقاسم السوق مع القطاع الخاص.

ومعظم الجدل الحالي بين مسؤولي الحج يتعلّق بما يسمّى "الحجاج الدوليين" – وهو تعبيرٌ مخفَّفٌ يُقصَد به آلاف الحجاج النيجيريين الذين يتهرَّبون من مجالس الحج الحكومية، ويتفقون مع وكلاء سفر يوفرون لهم تأشيرات الدخول والعملات الأجنبية اللازمة بأساليب غير قانونية. وقد أشار صديقي في دراسته التحليلية للسوق أن حكومةً نيجيريةً لم تتمكن من حصر فعالية الحج، وحاولَ إقناعَ زملائه باللجوء إلى حوافز السوق لاسترداد الأرباح المفقودة إلى الخزينة العامة بدلاً من هدر الثروات بفرض حظرٍ على سفر الحجاج لا يستطيع أحدٌ أن يضمَنَ تنفيذه بالكامل.

حتى إن أبسط سياسيات الخصخصة لم تكن مقبولةً في أوساط إدارة الحج في نيجيريا؛ فلطالما صُوِّرَ الحجاجُ الدوليون على أنهم لصوصٌ وفسّاق، أو على أنهم مخالفون متطفِّلون يصلون إلى مكة المكرمة مجاناً وبطرائق ملتوية، ثم يندسُّون في مخيَّمات الحج الرسمية دون دفع فلسٍ واحد. وكثيراً ما يوصَف مثل هؤلاء "الحجاج" غير النظاميين بأنهم متواطئون مع وكلاء سفرٍ منحرفين يتصيَّدون ضحاياهم ويبلِّصونهم من أموالهم قبل طرحهم في المملكة العربية السعودية بلا مالٍ ولا تذاكر عودة.

ويرى المصلحون من أمثال نائب مدير الحج أن حركة الحج غير النظامي تفوق كثيراً عددَ الحجاج النظاميين الذين تقبلهم الدولة (6000 شخص سنوياً على الأقل). ويقدر مسؤولو الحج أن أكبر مجموعة من "الحجاج الدوليين" – وهم يؤلِّفون نحو نصف جملة المسافرين المخالفين – هم أصحاب دخلٍ

متوسطٍ أو ضعيف، يلتمسون أرخص السُّبل لأداء فريضة الحج. وهؤلاء أكثر الشرائح تأثُّراً بالارتفاع المتكرر لتكاليف الحج التي فرضتها حكوماتُ التقشُّف للمحافظة على العملات الأجنبية. وبدلاً من أن تحرص الحكوماتُ العسكريةُ على تخفيض أنصبة الحج، عمدت إلى رفع تكاليف خدماته، بحيث باتت شريحةٌ صغيرةٌ فقط من السكان قادرةً على تحمُّل النفقات الباهظة. وقد أدّى ذلك إلى تقليص حجم الحج النيجيري بدرجةٍ كبيرة، وزيادة الطَّلب على سُبُلٍ بديلةٍ تتيح السفرَ لأولئك الذين لا يرغبون في تأجيل حجِّهم إلى أجلٍ غير مسمّى.

وقد دلَّتْ قوى السوق على فعاليتها كوسيلةٍ لتخفيض عدد الحجاج إلى حدٍّ جعلَ المسؤولين النيجيريين يفقدون اهتمامهم بالمناقشات الدولية المحتدمة حول أنصبة الحج النسبية. ففي حين كانت دولٌ من مثل تركيا وماليزيا وإيران تلحُّ على المملكة العربية السعودية لرفع أنصبتها، كان النيجيريون يقبلون بصمتٍ تخفيضاً بعد تخفيضٍ في نصيبهم. فلم تُبْدِ أبوجا أيَّ اعتراضٍ عندما قدَّرت السعوديةُ الحصصَ النيجيرية استناداً إلى إحصائيات سنة 1991 السكانية المتدنية، أو عندما قرَّرت تخفيض عدد الحجاج إلى النصف عن طريق إسقاط السكان غير المسلمين من الحساب.

ثم إن جزءاً كبيراً من هيئة إدارة الحج يحبِّذ فكرة تحويل وكلاء السفر في القطاع الخاص إلى شركاء في فعاليةٍ موسَّعة تشرف الدولةُ على تنظيمها دون أن تسيطر عليها. وبذلك يسمح الإصلاحيون للوكلاء بالتركيز على الأسواق المتخصِّصة غير الراضية عن الخدمات الراهنة، مادام الوكلاء ملتزمين باتباع التعليمات والتوصيات الحكومية في اختيار الحجاج والإشراف عليهم. ومن بنود هذه الخطة أن يدفع الحجاجُ كاملَ الرسوم مباشرةً إلى مجالس الحج التي تقوم بدورها باقتطاع عمولةٍ معيَّنة ثم تحويل المبالغ الباقية إلى الوكالات الخاصة لإعداد عقود الأداء. وفي المقابل يشارك وكلاءُ

السفر الحكومةَ واجباتِ المراقبة وضبط النظام العام في أثناء عملية الاختيار الأولية، ويتحملون مسؤولية أي مخالفاتٍ قد يرتكبها حجّاجهم.

ومما يدفع هيئةَ إدارة الحج إلى دراسة إمكان تطبيق نظام الخصخصة هو أن عدداً من أكثر زعماء المسلمين نفوذاً يطالبون الحكومةَ بالانسحاب من الإشراف على عملية الحج كليّاً، علماً بأن أكثر الناس انتقاداً لمجالس الحج وهجوماً عليها اليوم هي تلك الشخصيات التي اجتهدت لإنشائها ـ من أمراء وعلماء ودبلوماسيين أبلغوا أحمدو بيلو أن الدولة هي الجهة الوحيدة التي تستطيع إدارةَ فعاليةٍ دينيةٍ كبرى ذات أبعادٍ سياسيةٍ بعيدة الأثر.

وكان الراحل إبراهيم دسوقي أبرز الناقدين، وهوصديقٌ قديمٌ مقرَّبٌ من بيلو، ودبلوماسيٌّ شغلَ أول منصبٍ لتنسيق شؤون الحج النيجيري في المملكة العربية السعودية، وهو مؤسِّس مجلس الحجاج الوطني. وفي عام 1988 قام إبراهيم بابانجيدا بتعيين دسوقي سلطاناً على ولاية سوكوتو. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى عرف الجنرالات أن دسوقي أكثر استقلاليةً مما توقعوا. وفي إحدى مشاداته المشهورة معهم قال إن الحجَّ عانى لسنوات من سوء الإدارة في ظلِّ الحكم العسكري، وقد حان الوقت لتسليم إدارته للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وهو هيئة خاصة من شخصياتٍ ملكيةٍ وزعماء دينيين. وفي عام 1996 أقدم الرئيس ساني أباتشا على طرد السلطان الجريء ووضعه رهن الاحتجاز بانتظار محاكمته بتهمٍ تتعلَّق بالتدليس المصرفي.

وفي السنة نفسها فرضت المملكةُ العربية السعودية حظراً كاملاً على استقبال الحجاج النيجيريين بسبب تقارير مؤداها أنهم يحملون مرض التهاب السحايا المُعْدي[6]. ويصرُّ مسؤولو الحج النيجيريون حتى اليوم على أن الحظر كان محاولةً متعمَّدةً لإهانة أباتشا بسبب عزله الدسوقي، وأن الخوف من التهاب السحايا ليس سبباً كافياً لإغلاق المدن المقدسة في وجه النيجيريين في شتى أنحاء العالم، ولاسيما أولئك الذين يقيمون في مناطق

غير مصابة كأوربا والولايات المتحدة. ويزعم أحد أصدقاء دسوقي - وهو أستاذ في الدراسات الإسلامية ومدير حج سابق - أن الملك فهد كان واجداً على أباتشا لرفضه لقاء مبعوثه الشخصي للتوسط بين الحكومة والسلطان المعزول. وفي أبوجا يذهب مسؤولو الحج أبعد من ذلك، فيقولون: إن السعوديين بذلك كانوا يردُّون نيابةً عن الولايات المتحدة بسبب قيام أباتشا في وقت سابقٍ بسجن مشيد أبيولا الفائز في الانتخابات الرئاسية الملغاة في سنة 1993.

هذا ومازالت العلاقات النيجيرية - السعودية مشوبةً بالمرارة على إثر المواجهة التي وقعت سنة 1996، عندما حاول أباتشا إسكات المدافعين عن إدارة الحج التي يمثلها دسوقي والسعوديون المتعاطفون معه، وأمرَ بحلِّ مجالس حج الولايات التي تمثل فئات المجتمع وأبدلها بإداريين يتلقَّون أوامرهم من أبوجا حصراً.

ثم اختار أباتشا لرئاسة إدارة الحج الجديدة الجنرال أحمد داكو قائد سلاح المدفعية الواسع النفوذ من ولاية كاستينا، الذي كان الحاكمَ العسكري لسوكوتو وكانو في عهد بابانجيدا. وبذلك تكون الشخصيةُ العسكرية التي أخمدت الاضطرابات التي واكبت اعتلاء دسوقي عرش السلطنة في سنة 1988 ودامت أسبوعاً، هي نفسها التي تولَّت رئاسةَ وكالة الحج عند إقصاء دسوقي عن السلطة بعد ثماني سنوات[7].

وعندما أصبح داكو مديراً للحج تبادل انتقاداتٍ عنيفةً مع المملكة العربية السعودية، فاتَّهمها بتقديم خدماتٍ ثانويةٍ بأسعارٍ باهظة، واحتجَّت المملكةُ بالمقابل بأن نيجيريا تتلكأ في تسديد التزاماتها المالية. ولم يكن من مصلحة داكو الإمعان في مناصبة السعوديين العداء لأنه بحاجةٍ إليهم لاستعادة سيطرته على حجاجه، إذ ما لم تكن السعوديةُ راغبةً في ردِّ النيجيريين الذين لم توافق مجالسُ الحج النيجيرية على سفرهم، فلن تقوم لأبوجا قائمةٌ في

التحكم في تجارة الحج السرّية الرابحة. ثم إن كثيراً من النيجيريين يحصلون على تأشيرات حجٍّ عن طريق علاقاتٍ شخصية، وهو يعلمون أن السلطات السعودية كانت تغضّ الطرف عن الأجانب الذين يقيمون في المملكة بعد أداء فريضة الحج. على أن ما حصل في سنة 1999 من أزمةٍ في سوق النفط حملَ السلطات السعودية على تصعيد حملة طرد الأجانب المقيمين في المملكة بصورةٍ غير مشروعة، والترحيب بدعوة نيجيريا إلى حلِّ المشكلة من جذورها. وكان الحجُّ في ذلك العام هو الأول الذي توافق فيه السعودية على عدم قبول حجاجٍ نيجيريين ما لم يكونوا مسجَّلين رسمياً لدى مجالس الحج النيجيرية.

"بابانجيدا هو الشيطان عينه"

كثيراً ما كان النيجيريون ينحون باللائمة على إبراهيم بابانجيدا باعتباره مسؤولاً عن تخريب فعالية الحج وغيرها من الفعاليات في البلاد. ونظام بابانجيدا (1985 – 1993) هو أطول حكمٍ عسكريٍّ مرَّ على نيجيريا وأخضعَ الملايين لنظام تقشُّفٍ شديد الوطأة، إضافةً إلى هالةٍ من القدسية يدَّعي كثيرون أنه كان يحاول تعزيزها لجعل الجميع في حالة من الترقُّب الدائم لأفعاله القادمة. ولم أجدني يوماً بحاجة إلى أن أسأل أحداً عن رأيه في إبراهيم بابانجيدا، فقد كان الوصف السائر على ألسنة الناس أن "بابانجيدا هو الشيطان". ومن المفارقات أنه لم يكن يستنكر هذا الوصف، بل آثر أن يسمّي نفسه "شيطان الشر" فكان اسمه مرتبطاً بهذين الوصفين اللذين سمعتُهما من أفرادٍ من مختلف المشارب.

حتى إن الشارع الذي يضمُّ ما يسمّى "منطقة الأذرع الثلاث" في أبوجا – أي المجلس الوطني والمقرّ الرئاسي والمحكمة العليا – قد أُطلق عليه اسم طريق إبراهيم بابانجيدا. ومازال كثيرون من العامة يتحدثون عن هذا الرجل وكأنه يملك زمام الحكومة بنفسه جسداً وروحاً. وبعد خلفه ساني أباتشا نُسب إليه توسُّطه في اختيار ألوسيغون أوباسانجو كمرشحٍ رئاسي معتدل

قادرٍ على التعامل مع مختلف الفئات الرئيسية: المعارضة من اليوربيين Yoruba والمؤسسة الشمالية والجيش.

كانت دوائر الحج في شتى أنحاء البلاد تغصُّ بموظفين مدنيين، وبعسكريين سابقين من بطانة بابانجيدا. وعندما تسنَّم أوباسانجو السلطةَ صَرَفَ مديري الحج في الولايات الكبرى، في حين بقي مَن احتفظوا بمناصبهم من العهد العسكري السابق في الإدارة العامة بأبوجا.

ولئن ادّعى أنصار دسوقي أن بابانجيدا قد "دمَّر الحج"، فإن ادّعاءهم مبنيٌّ على أمور أولها التقلُّص الكبير في عدد الحجاج؛ ففي عهد بابانجيدا لم توفد نيجيريا أكثر من 30.000 حاج إلى مكة وكان المتوسط يقارب 20.000، وهذا أقلُّ بكثير من العدد الذي اعتادت نيجيريا إيفاده إبان سنوات الطفرة النفطية عندما كان عدد الحجاج يزيد على 100.000. وثانيها إساءة استعمال إجراءات انتقاء الحجيج، التي وُضعت أصلاً للحدّ من استغلال الحجاج، بحيث صار يُنظَر إلى عملية الانتقاء نظرةَ استخفاف في الوقت الذي أمسى فيه السفرُ الخارجيُّ في ظلِّ التراجع الاقتصادي الكبير أمراً صعب المنال على الجميع، اللهم إلا على أصحاب الامتيازات. وفيما يعيث "التكيُّفُ البنيويُّ" تمزيقاً في مجتمعٍ منقسمٍ أصلاً تحت وطأة التفاوت الاجتماعي، باتت العلاقاتُ السياسيةُ الشخصية من لوازم الحصول على مكانٍ في لوائح الحج المنكمشة.

لقد أصبح الحج في عهد بابانجيدا حِكراً على الأقوياء. ولطالما أخذ أعداؤه عليه حشدَه الوفود الرفيعة المستوى بأزلامه وأقاربه، لكنَّ الأثر السلبي لسياساته في تركيبة الحج الاجتماعية يبدو واضحاً لدى المقارنة مع حقبة السبعينيات عندما كان الحجاج النيجيريون يمثِّلون شرائح المجتمع كافة، في حين أن بابانجيدا يُحظي الشماليين على الجنوبيين، والرجال على النساء، والكبار على الصغار.

وتبدو نيجيريا المستقلة وكأن فيها نظامَيْ حجٍّ منفصلَيْن - أحدهما قبل بابانجيدا والآخر بعده. فمنذ عام 1960 والحج النيجيري يراوح بين انبساطٍ وانقباض (الشكل 1-9)، وهو متاحٌ للمسلمين من شتى المناطق ومختلف المستويات الاجتماعية. واستمرَّ الحجُّ في توسُّعٍ وإقبال حتى نهاية الطفرة النفطية في مطالع الثمانينيات، يستثنى من ذلك مدة قصيرة من الحرب الأهلية.

بدأ التراجع في فعالية الحج النيجيري قبل اشتداد وطأة الحكم العسكري؛ إلا أن بابانجيدا أسهم في تسريع هذا التراجع الذي مازال يعاني حتى يومنا هذا.

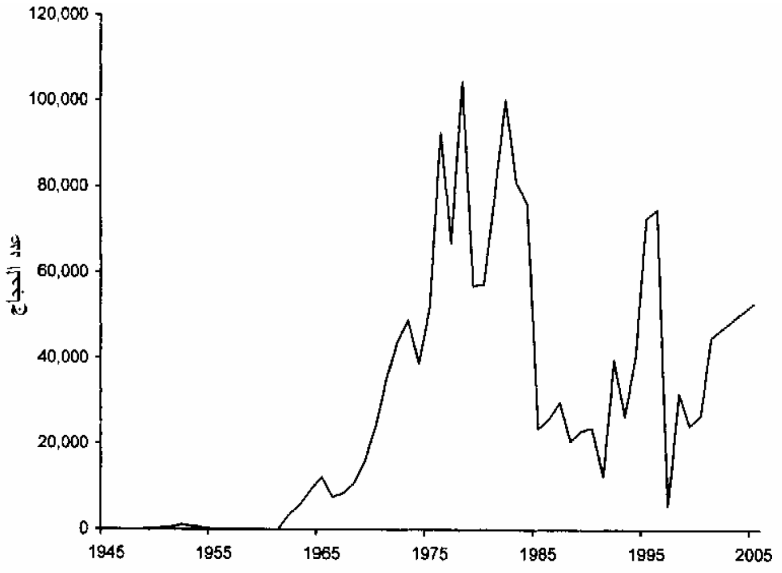

الشكل 9.1 تطوُّر فعالية الحج في نيجيريا ما بين عامي 1947 و 2004

ثم استعاد الحجُّ بعضَ عافيته عندما استقال بابانجيدا وسط الاضطرابات التي صاحبت إلغاء انتخاب مشيد أبيولا؛ فأشارت الإحصاءات إلى أن أعداد الحجيج السنوية الذين أوفدتهم نيجيريا ما بين عامي 1993 و1995 إلى مكة المكرمة تقع بين 30.000 و 56.000 حاج. وكانت هذه الفورة مطَمْئنةً ومحذِّرةً لمديري الحج؛ فقد أظهرت أن الحكام العسكريين مازالوا

يعتقدون أن فعالية الحج تستحق الإنعاش، ولاسيما عندما يكونون بحاجةٍ إلى دعمٍ شعبيٍّ للخروج من أزمةٍ سياسية. وأدركت مجالسُ الحج بالمقابل أن هذه الطفرةَ ستتمخَّضُ بتنامي عدد الحجاج غير النظاميين والنيجيريين المقيمين في الخارج. وسواءٌ أكان الحجُّ متنامياً أم متراجعاً، فإن واحداً من كلِّ أربعة حجاج غير مسجَّلٍ نظامياً في برنامج الحج الذي تريده الدولة. وعندما تراجع عدد الحجيج ثانية في سنة 1996 بسبب الخوف من مرض التهاب السحايا، ناشدتْ مجالسُ الحج السلطاتِ السعوديةَ مساعدتها على استعادة التحكم في عملية الحج المتراجعة.

ويرى كثير من مديري الحج السابقين أن أكبر خطأ ارتكبه بابانجيدا هو وضع الحج الإسلامي والمسيحي على قدم المساواة. إن الذين أوجدوا مجالسَ الحج هم دبلوماسيون وساسة ورجال دين سابقون من أتباع أحمدو بيلو. ومازال كثيرٌ منهم اليوم يديرون جامعاتٍ ووكالاتٍ حكوميةً وتجاراتٍ في كلِّ أنحاء البلاد، وهم يَنتقدون مَن حلَّ محلَّهم في إدارة الحج من رجال الجيش والشرطة، ويَشجبون "التنازلات" التي قدَّمها بابانجيدا للمسيحيين في مضمار الحج.

والحج ليس فريضةً على المسيحيين كما هو على المسلمين، وهو ليس من تقاليد المسيحيين النيجيريين، بل إنه مسألةٌ سياسيةٌ محضة؛ فهم يحجون تقليداً للمسلمين. وبعد عودتهم يطلق كثيرٌ منهم على نفسه لقب "الحاج المقدسي". أما عند المسيحيين الذين كانوا يقاومون التمييز الديني، فإن الحج لا يعني إلا غيضاً من فيض. فقد انتقدت رابطةُ مسيحيي نيجيريا The Christian Association of Nigeria (CAN) بابانجيدا لأنه - في رأيها - حوَّل نيجيريا سرّاً إلى دولة إسلامية. وفي وقتٍ لم تكن فيه أحزابٌ ومؤسساتٌ مستقلة، تَوسَّع نطاق رابطة CAN وتعزَّز وجودها حتى غدت حركة معارضة صغيرة تمثِّل الاحتجاج الديني[8].

ولا شك أن اعتماد نوعٍ من التكافؤ بين الحج إلى بيت المقدس والحج إلى مكة المكرمة قد أسهم في احتواء هذه المعارضة، وحمل القادة المسيحيين على

تبادل الأدوار في الحوار القديم العهد عن مدى ما يسمح به دستور نيجيريا العلماني للدولة برعاية الحج. وإذ أصبحت الكنائسُ قويةً سياسياً فقد بدأت تتراجع عن مطالبة الدولة بالتزام خطٍّ علمانيٍّ بعيدٍ عن الدين بالكليّة، وأخذت تحثُّ الحكومةَ على دعم المعتدلين ضد الأصوليين الذين كانوا يهدِّدون الديانتين الإسلامية والمسيحية كلتيهما[9].

لكن القادة المسلمين تحرّكوا في الاتجاه المعاكس، فاعتنقوا فكرةَ خصخصة الحج، ورأوا في القطاع الخاص الحلَّ الأمثلَ لإنقاذ إدارة الحج التي أوجدوها من "القراصنة" المتسلِّطين. وردَّد الأمراءُ والعلماءُ مطلبَ إبراهيم دسوقي في أن تسلِّم الحكومةُ إدارةَ الحج إلى المجلس الإسلامي الأعلى The Supreme Islamic Council، إلا أنهم لم يتَّفقوا على خطة عملٍ مشتركة، لأن بعض أعضاء المجلس فضَّلوا أن تكون الخصخصةُ جزئيةً، في حين آثر آخرون أن يتولّى المجلسُ الإسلامي الأعلى إدارةَ الحج مباشرةً، على أن تبقى مجالسُ الحج هيئاتٍ عامةً تتمتع بسلطة الإشراف وتموِّلها الميزانية الفِدرالية.

هذا ولا يولي معظمُ مديري الحج كبيرَ اهتمام بالجهة التي تدير مجالس الحج، فقد تتولاها الحكومةُ أو المجلس الأعلى أو كلاهما معاً. إن الغاية هي التخلُّص من الدورة اللانهائية لإعادة التنظيم، التي تدفع كلَّ حكومةٍ إلى إلغاء القوانين والسجلات المعتمدة من سلفها. من هنا يشكو مسؤولو الحج من غياب الاستمرارية في السياسات والأُطر البشرية، ومن شأن ذلك أن يمحو الذاكرة المؤسساتية بالكامل.

لا يرى كثيرٌ من النيجيريين في تفضيل بابانجيدا وأباتشا للحج المسيحي على الحج الإسلامي أمراً مستهجناً. وقد ذكَّرني عدةُ أشخاص أن الحج الإسلامي النيجيري كان يصيب نجاحاً أكبر بقيادة حكّامٍ مسيحيين منه في ظلِّ حكوماتٍ إسلامية. فلا داعي إذن للاستغراب عندما تنقلب الموازين، لأن الساسة من كلا الديانتين يدركون أن بإمكانهم كسبَ الدعم من أفراد الدين الآخر عن طريق تسديد نفقات حجِّهم من الأموال العامة.

ومما تجدر الإشارة إليه هاهنا أن أول برنامج حجٍّ حكومي - حتى قبل الاستقلال - كان مسيحيَّ النشأة وليس إسلامياً؛ فقد أحدث أوبافيمي آولوو Obafemi Awolowo حاكمُ المنطقة الغربية مجالسَ حجٍّ خدمةً لدائرته الانتخابية المتعدّدة الأديان، ثم حذا أحمدو بيلو حذوه بعد سنوات في المنطقة الشمالية[10]. وقد أبدى آولوو دعماً للإسلام أكسبه عدداً كبيراً من الأنصار من بين الناخبين المسلمين. وبحملاته الرئاسية غير الناجحة في عامَي 1979 و 1983 تمكَّن من اجتذاب جمهورٍ عريض في المدن الشمالية من مثل سوكوتو، مجبراً بذلك أنصار شيهو شاغاري على مضاعفة جهودهم للفوز بالانتخابات فيما كان يُفترَض أنه أكثر مناطقهم ضماناً للنجاح[11].

كذلك فقد كان الرئيسُ ياكوبو غوون Yakubu Gowon- الذي حوَّل مجالسَ الحج المحلّية إلى نظامٍ شاملٍ على مستوى الدولة - مسيحياً، وهو الجنرال الذي قاد نيجيريا في إبان سنوات الحرب الأهلية وإعادة البناء، وكان والده مبشِّراً إنجيلياً معروفاً. وكانت خلفية غوون الاجتماعية مدعاةً لطمأنة النُّخب الإسلامية أنه لا يكنُّ عداءً للإسلام، ولاسيما بعد أن قسَّم المنطقةَ الشمالية إلى ستِّ ولايات منفصلة ليتمكن بذلك من تركيز السلطة في الحكومة الاتحادية. ثم إنه دعمَ فعالية الحج مالياً وأدخلَ نيجيريا في منظمة المؤتمر الإسلامي، وقام بتأميم نظام المدارس التبشيرية والمشافي الذي كان يوجِّه جزءاً كبيراً من القيادة العسكرية والسياسية. ويرى عددٌ من كبار رجال الكنيسة أن غوون كان مراعياً لمشاعر المسلمين حتى إنه أكَّد عن غير قصد شعورَ المسيحيين بأن الدولة تنظر إليهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية[12].

ويشير القادةُ المسيحيون إلى أن سياسات التمييز التي حاربوها خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي قد ظهرت أولاً في عهد غوون. ويقرُّ رجال الكنيسة، برغم كراهيتهم لبابانجيدا وأباتشا، أنهم وجدوا

من قادة المسلمين خيراً أكبر مما وجدوه من غوون، ذلك لأن المسلمين كانوا يسعون إلى التدليل على أنهم لم يعودوا مَدِينين لأصحاب النفوذ في الشمال.

الانحياز العِرقي والإقليمي للحكم العسكري

قلَّصت الحكوماتُ العسكرية المحور الجغرافي للحج بحيث بات يقتصر على عددٍ محدود من الولايات ذات الحظوة. وتدل الإحصاءات على أن متوسط عدد الحجاج النيجيريين ما بين عامي 1977 و 1982 كان يناهز 61.000 سنوياً، في حين أنه أصبح - بعد 15 سنة - لا يتجاوز 21.000 حاج[13] (الجدول 1A-9). وقد كانت معدّلات الحج النيجيري في عهد أسلاف بابانجيدا أعلى بنحو 35 بالمئة من المتوسط العالمي. أما في عهد خلَفه فلم تصل المعدّلاتُ النيجيرية نصفَ المعدَّل الدولي.

وقد طالَ هذا التراجعُ في عدد الحجيج الولاياتِ كلَّها، إلا أن أثره كان متفاوتاً؛ فكانت المراكزُ التجارية مثل لاغوس وكانو أكثرَ المدن تضرُّراً بحكم أنها عُرضةٌ لتعطُّل التجارة الخارجية وفعاليات المال والأعمال. أما المناطق الزراعية فبدت أفضل حالاً، ولاسيما في أقصى الشمال والشرق، حيث إن صغار المزارعين أقل اعتماداً على أنظمة الاقتصاد النقدية. وقد أخبرني نيجيريون من داخل الحكومة وخارجها أن المتاعب الاقتصادية التي أنهكت فعاليةَ الحج أفضت في الواقع إلى تحسين نوعية التجربة بإعادة التركيز على الغاية الدينية من الحج، بعد سنوات من استغلاله تجارياً. وخلصوا إلى أن الذين يقصدون مكة في الأوقات الصعبة هم في الأغلب فلاحون متديّنون بسطاء ممَّن أفنوا أعمارهم وهم يدّخرون ما يبلِّغهم مناسك حجِّهم مرةً واحدة.

على أن الأمر لا يقف عند الناحية الاقتصادية فقط، فالعوامل السياسية والعِرقية أكبر أهميةً في تحويل الأساس الجغرافي للحج. وقد لوحظ أن أقلَّ الولايات معاناةً فيما يتصل بالحج هي الأقاليم الشمالية الغربية والوسطى، وبخاصة نيجر وكادونا وسوكوتو، وهي الولايات التي ضرب فيها بابانجيدا

وزمرته جذورهم عميقاً. إن ما يطرأ من تبدُّلات في القوة النسبية لفعالية الحج يشير إلى تحوُّلٍ عامٍّ للسلطة من كانو، المدينة الصناعية العالمية في الشمال، إلى سوكوتو، معقل الأرستقراطية الفولانية Fulani aristocracy التي ترجع أصولها إلى القرن التاسع عشر، علماً بأن الكثيرين من العسكريين والموظفين المدنيين الشماليين الذين نسقوا لانتقال السلطة قدِموا من قرىً ومدنٍ في الولايات المجاورة التي استفادت من تحوُّل الاستثمارات العامة من كانو إلى الأرياف. ويُذكر أن أكبر الجهات المستفيدة - إضافةً إلى سوكوتو - هي نيجر مسقط رأس بابانجيدا، وكادونا التي كانت حاميةً عسكريةً بريطانية سابقاً، ثم تحوَّلت إلى مركزٍ عسكريٍّ وسياسي في شمال نيجيريا.

في المقابل انخفضت معدّلاتُ الحج في الجنوب انخفاضاً شديداً. ويشار إلى أن المسلمين يؤلِّفون أقليَّةً صغيرةً في الولايات الجنوبية الشرقية، وكثيرٌ منهم مهاجرون من الشمال على أنهم تجّار ومرشدون دينيون كانت لديهم نزعةٌ مدهشةٌ للحج قبل الحكم العسكري. إلا أنهم بعد حقبة الكساد الاقتصادي عادوا غير قادرين على أداء الحج بمعدّلاتٍ عالية، مع أن معدّلات حجِّهم ظلَّت فوق المتوسط الوطني العام على كل حال.

ويلاحَظ أن أكثر المناطق تضرُّراً منطقة يوروبالاند، التي تعدّ مصدر الاضطرابات في سبيل الديمقراطية، والخصمَ العنيد للغرور المستبدّ في الشمال. وفي ظلِّ الحرّية والازدهار النسبيَّين تحت حكم أوباسانجو وشاغاري انضمت يوروبالاند إلى مدينتي لاغوس وكوارا لتؤلِّف جميعاً سلسلةً لفعالية حجٍّ تمتد من المحيط الأطلسي في الجنوب الغربي إلى بورنو في الشمال الشرقي (الشكل 2-9). وبعد خمس عشرة سنة صارت ولايات يوروبا تمثِّل أدنى معدّلاتٍ للحج في البلاد على الإطلاق.

وفيما بين عامي 1977 و 1982 تخطَّت فعاليةُ الحج كلَّ الحدود، الإقليمية والعِرقية، فارتفعت معدّلات الحج في كل مكان تقريباً على امتداد

الخط الحديدي الذي يربط لاغوس وبورت هاركورت بكادونا، ومن ثم يتابع باتجاه الشمال إلى كانو وبورنو. وبعد عقد ونصف من الحكم العسكري باتت نيجيريا أكثر تقسيماً؛ فقد بدأ خطُّ الصَّدع إلى الجنوب من العاصمة الجديدة فاصلاً الشمال الغربي عن الجنوب الغربي، مواكباً مجرى نهر نيجر، وراسماً حدود المناطق الثقافية والسياسية التي تستحكم العداوة فيما بينها.

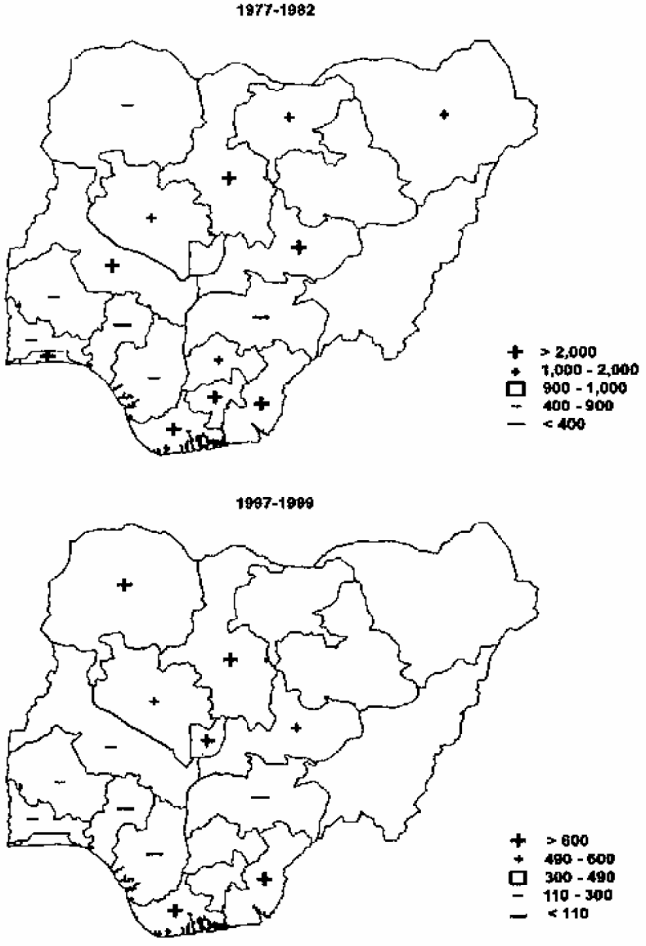

الشكل 9.2 معدّلات الحج في ولايات نيجيريا

كان للحكم العسكري آثارٌ بالغة على كل جوانب الحج، الاقتصادية والثقافية والسياسية[14] (الجدول A 2-9) .ففي الولايات الخمس عشرة، حيث تتجاوز نسبة المسلمين 5 بالمئة من تعداد السكان، أصبح الحج منفصلاً عن كلِّ معايير التطوُّر الاجتماعي والاقتصادي. وفي الوقت نفسه تنامى دور العِرقية والسياسة تنامياً كبيراً.

وبين عامَي 1977 و 1982 لم تسجِّل المشاركةُ في الحجِّ سوى اختلافات بسيطة بين يوروبا ومجتمع هاوسا – فولاني. وبحلول سنة 1999 غدت مظاهر التفاوت العِرقي صارخة. وقد أحدثت فعاليةُ الحج صلاتٍ قويّةً ومتعارضة مع كلا الجماعتين بانحسارها عن مناطق يوروبا المختلطة الديانات وانتقالها إلى ولايات هاوسا ذات الغالبية المسلمة.

وقد أصبحت هذه الانشقاقات – الإقليمية والعِرقية والدينية – كلُّها ذات طابعٍ سياسيٍّ إلى حدٍّ بعيد. فعلى سبيل المثال لم يكن الإقبالُ على الحج في غمرة التنافس المتعدّد الأحزاب سنة 1979 وسنة 1983 ذا علاقةٍ تُذكر بتأييد الناخبين لأيٍّ من شاغاري، المسلم الشمالي، أو آولوو، المسيحي اليوروبي. وقد سعى كلٌّ منهما إلى إقامة تحالفاتٍ متجاوزَيْن حدودَ دوائرهما الانتخابية في الحملات الوطنية.

ويلاحَظ نقيضُ ذلك في عقد التسعينيات الماضي عندما سارت الانتخاباتُ الإقليميةُ على التوازي مع تقلُّبات فعالية الحج. ففي سنة 1993 تفوَّق أبيولا في الولايات التي كَبحتْ فيها الأنظمةُ العسكريةُ فعاليةَ الحج، وتراجعَ إلى أدنى مستوى في المناطق التي دعم فيها الحج. وفي سنة 1999 أظهرَ تأييد أوباسانجو صورةً مغايرةً تماماً؛ إذ لم يتمكّن أبيولا ولا أوباسانجو – في أجواء الانقسام السائدة في التسعينيات – من التغلُّب على فكرة أنهما يمثلان منطقةً معيَّنة. وفي كلتا الحالتين لم تكن ديانة المرشح الفائز أمراً ذا أهميةٍ للناخبين الذين أخذوا في حسبانهم أن المصالح العِرقية والإقليمية هي

الأساس، فأطلق الشماليون على أبيولا اليوروبي اسم "المرشح الجنوبي" مع أنه مسلم، في حين أطلق الجنوبيون على الجنرال السابق أوباسانجو اسم "المرشح الشمالي" مع أنه يوروبي ومسيحي. ومن هنا تبرز مفارقةٌ مزدوجة بين مرشَّحٍ مسلمٍ خسرَ الانتخابات في المناطق ذات الحج الناشط سنة 1993، ومرشَّحٍ مسيحي ربحَ الانتخابات بعد ستِّ سنوات.

وحتى لو استثنينا يوروبالاند وركزنا على الولايات العشر التي كانت تؤلِّف "الإقليم الشمالي" Northern Region قبل الحرب الأهلية، لاحظنا أيضاً أن الحج لم يعد يرتبط بالتطوُّر الاقتصادي أو بالتنوُّع العِرقي أو الديني؛ بل أصبح أكثر ارتباطاً بالولايات الشمالية ذات التاريخ الإسلامي العريق، منه بمناطق الحزام الأوسط التي تعتنق أقلّياتُها القَبَليةُ دياناتٍ تقليديّة. ففي ولايات الحزام الأوسط يتعلَّق نشاطُ الحج بالانتماء الديني: فهو أقوى في غرب أبوجا حيث الأغلبية المسلمة، وأضعف في شرقها حيث تصيب المسيحية نجاحاً.

والاستثناء الوحيد هو ولاية بلاتيو التي تعدّ عاصمتها جوس مركزاً للأنشطة التبشيرية لجماعات مسيحية وإسلامية تسعى إلى السلطة في منطقةٍ يتمسّك نصفُ سكانها بمعتقداتٍ تقليدية. ويشار إلى أن التوتر الطائفيَّ في بلاتيو قد ساعد على رفع معدّلات الحج مدة عشرين سنة برغم الهزات السياسية والاقتصادية التي أنهكت فعالية الحج في المناطق الأخرى. وعندما راجَ الحجُّ المسيحيُّ في التسعينيات كانت انطلاقته من بلاتيو، فاحتلت الولايةُ مركزاً ريادياً في السفر إلى بيت المقدس وإلى مكة المكرمة كذلك[15].

وكان للإقبال على الحج في الإقليم الشمالي السابق علاقةٌ وثيقةٌ سلبيةٌ بالتصويت الانتخابي لشاغاري، وعلاقةٌ محدودةٌ إيجابيةٌ بالتصويت لآولوو. وكانت المرة الوحيدة التي يتداخل فيها التصويتُ الحزبيُّ في الشمال بفعالية

الحج في سنة 1993، عندما نجحَ أبيولا في الولايات الحضَرية التي تتدنّى فيها فعاليةُ الحج، وخسرَ في الولايات الريفية حيث يحرص الحكمُ العسكريُّ على إبقاء فعالية الحج نشطة.

إن صعود مدينة سوكوتو وحلفائها في منطقة الحزام الأوسط على حساب جاراتها يُظهِر أن الحكمَ العسكريَّ لا يعني ببساطة سيطرةَ الشمال على الجنوب؛ فقد امتنعت السلطةُ والازدهارُ والحجُّ أيضاً عن الولايات الشمالية التي لم تكن على وفاقٍ مع بابانجيدا وخالفيه. وتشير بيانات الحج إلى أمثلةٍ صارخةٍ من التمييز الإقليمي بين الشمال والجنوب (الشكل 3–9).

كانت كادونا ولاغوس مركزَيْن حيويَّيْن للحجّ في عهد شاغاري، إلا أنهما اتجهتا بعد ذلك في منحيَيْن متعاكسَيْن في ظلِّ الحكم العسكري. وليس ثمة مثال على نزعة التمييز بين الشمال والجنوب أنصع من واقع التباين في توزيع الثروات في كادونا ـ مركز السلطة المزدهر في الشمال، ولاغوس العاصمة التجارية المتأخرة في الجنوب.

ومع ذلك، فإن هناك – حتى في الشمال – ولايات تتأرجح فيها فعاليةُ الحج بين ارتفاعٍ مفرط وهبوطٍ محبط، وذلك بسبب تقلُّب التحالفات السياسية فيها بشدّة في ظلِّ الديمقراطية والدكتاتورية. ولعلَّ أوضح مثالٍ على ذلك التنافس المعروف بين سوكوتو وكانو[16]، علماً بأن سقوط كانو كان متواضعاً إذا ما قورن بمصير كوارا: الجسر الواعد بين الشمال والجنوب، التي كتبَ عليها سوءُ قَدَرِها أن تكون الجارَ والمنافسَ لولاية نيجر ـ موطن بابانجيدا.

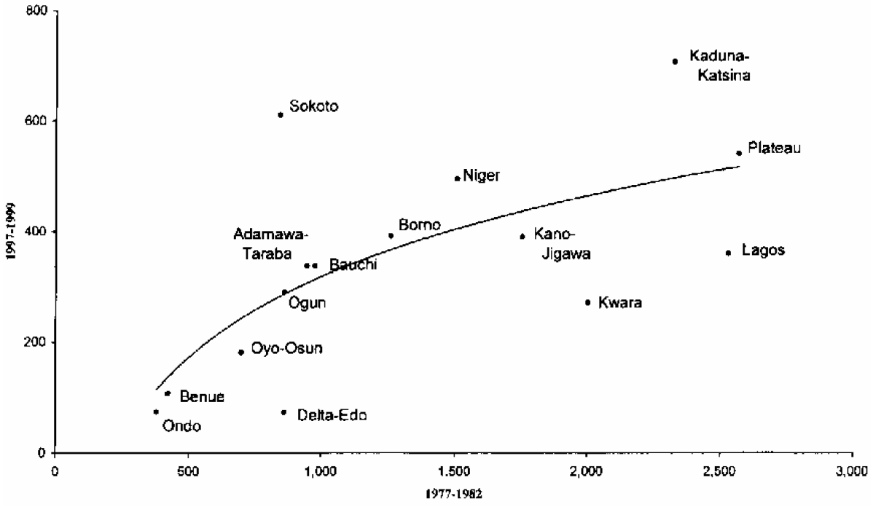

الشكل 3-9 معدّلات الحج في ولايات نيجيريا ما بين عامي 1977 - 1982 وعامي 1999 - 1997

كوارا مقابل "ولاية السلطة"

تقع ولايتا نيجر وكوارا متقابلتين على امتداد الرافد الأعلى لنهر نيجر (الشكل 4-9). وكانت كلتاهما - تاريخياً - بوّابتَيْن للتجّار والجيوش المتجهة شمالاً وجنوباً، وولايتَيْن خاضعتَيْن للممالك المجاورة التي كثيراً ما كانت تُغير على حدودهما. وانفردت كلٌّ منها بأسلوبها المتميِّز في الاستفادة سياسياً من موقعها الاستراتيجي؛ ففي حين تسعى نيجر إلى إقامة تحالفاتٍ مستقرةٍ مع حكامها السابقين في الشمال، تُفاخِر كوارا بامتلاكها فسحةً أكبر للمناورة.

وولاية نيجر مرتبطة ارتباطاً قوياً بالشمال المسلم لأنها خضعت لأجيالٍ عديدة لحكم مجاهدي فولاني Fulani ومَن خَلَفَهم، إضافةً إلى كونها مركزاً لجماعة النوبي Nupe التي كان همُّها الأول استمرار بقائها، فلم تسعَ إلى التوسُّع. أما ولاية كوارا (وهي الجزء الشمالي من يوروبالاند) فكانت نقطةَ انطلاق مبكرة للزحف الإسلامي الطويل من منطقة الساحل Sahel إلى المحيط الأطلسي. ومازال قادتها يرتبطون ثقافياً وسياسياً بالشمال الإسلامي والجنوب اليوروبي[17].

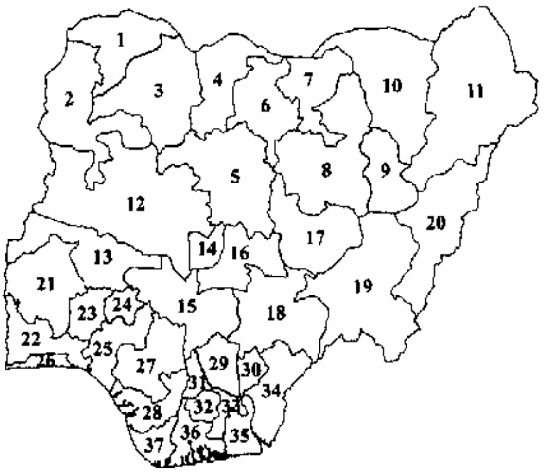

NORTH	MIDDLE BELT	SOUTHWEST	SOUTHEAST
1 Sokoto	12 Niger	21 Oyo	29 Enugu*
2 Kebbi*	13 Kwara	22 Ogun	30 Ebonyi**
3 Zamfara**	14 Abuja	23 Osun*	31 Anambra
4 Katsina*	15 Kogi*	24 Ekiti**	32 Imo
5 Kaduna	16 Nasarawa**	25 Ondo	33 Abia*
6 Kano	17 Plateau	26 Lagos	34 Cross River
7 Jigawa*	18 Benue	27 Edo*	35 Akwa-Ibom**
8 Bauchi	19 Taraba*	28 Delta	36 Rivers
9 Gombe**	20 Adamawa		37 Bayelsa**
10 Yobe*			
11 Borno			

* أنشئت سنة 1991

** أنشئت سنة 1996

الشكل 9.4 ولايات نيجيريا

وواقع ولاية كوارا يشهد بأن طموحها ومرونتها كثيراً ما ينقلبان لغير مصلحتها. وتتمثل مشكلةُ كوارا في عدم قدرتها على التعامل السليم لا مع الشمال ولا مع الجنوب، وذلك يعود في المقام الأول إلى أن قادتها يستغلُّون تراجع سمعة منطقتهم كمعقلٍ إسلامي. ولا غرو، فقد كانت إيلورين، عاصمةُ الولاية، أولَ منطقة قوةٍ في يوروبا تعتنق الإسلام ديناً جامعاً. وفي المدن التي هي أكبر من مثل كانو ولاغوس يقدِّر الناسُ تماماً الدورَ الريادِيَّ لإيلورين في

نشر الإسلام، إلا أنهم يرون أن ذلك لا يسوِّغ إعطاء امتيازٍ خاصٍّ لحكّام كوارا المعاصرين، ولاسيما في القضايا السياسية.

وكوارا، شأن نيجر، هي أيضاً موطن قائدٍ عسكريٍّ مكروه اسمه: تيوندي إيدياغبون، وهو الرجل الثاني في نظام بوهاري الذي أطاح حكومةَ شاغاري المدنيّة في سنة 1983. وعندما استولى بابانجيدا على السلطة بادرَ من فوره إلى تطهير الجيش من إيدياغبون وأعوانه. وما إن كُسِرت شوكة إيدياغبون حتى وُكِل إليه منصبٌ مرموق في المشروعات الصناعية الحكومية، وعُرِف منذئذٍ بلقب "الرجل الفولاذي"، رمزاً مريراً لما صار إليه من انسلاب حوله وقوَّته.

بعد إبعاد إيدياغبون وبوهاري ضَمِنَ بابانجيدا أن نيجر - لا كوارا - هي التي ستجني ثمار حكمه، فألغى خططاً لتحويل طريق إيلورين - عبدان القديم إلى طريقٍ سريعٍ ومنظَّم. وعندما التمس حاكمُ كوارا منه تجريف مجرى نهر نيجر لإعادة فتحه في وجه الملاحة، أرسل بابانجيدا ما يلزم من مهندسين ومعدات لا إلى المكان المطلوب، بل إلى منطقة الدلتا الغنية بالنفط. وعندما أيقن قادةُ كوارا أنهم قاب قوسين من الحصول على موافقةٍ لبناء مطارٍ جديدٍ يحلُّ محلَّ مطار لاغوس كمحور لرحلات الشحن، فوجئوا بتحوُّل بابانجيدا إلى تحديث مطار لاغوس بدلاً من ذلك!

على أن الضربة القاصمة لاقتصاد كوارا تمثَّلت بخيبة آمالها بالتحكُّم في أنفَسِ الموارد الطبيعية في غرب نيجيريا، وهي الماء والكهرباء؛ فمن المعروف أنه إلى الشرق من حدود بينين، تؤلِّف نيجر العليا ما يسمّى بخزّان كينجي، وهو بحيرة تمرُّ بحدود ولاياتٍ ثلاث. والخزان جزءٌ من ثروةٍ تنمويةٍ عظيمةٍ يمكن استغلالها في استصلاح الأراضي وتوليد الكهرباء في أواسط نيجيريا وشمالها. وكانت الحكومةُ الاتحادية قد وضعت إدارةَ هذا المشروع في كوارا، إلا أن بابانجيدا أمر بنقلها إلى نيجر.

في الوقت نفسه تقريباً اعتمدت أبوجا نظاماً جديداً لتسجيل المركبات يسمح لكل ولاية بعرض شعارٍ ملائمٍ على لوحات سياراتها، فاختارت

السلطاتُ في موطن بابانجيدا شعاراً يقول: "نيجر: ولاية السلطة"، إشارةً إلى نفوذها وإحكام سيطرتها على موارد الثروة.

وإذ وجد قادةُ كوارا أنفسَهم مبعدين عن الحكومة الاتحادية، تخوَّفوا من أن يقوم الجنرالات بتشجيع المتطرفين الدينيين على تقويض وجودهم من الداخل، لاسيما وأن مدينة إيلورين تعاني منذ زمن من التوتر الإسلامي – المسيحي، إضافةً إلى انشقاق إسلامي – إسلامي. وكان يُنتظَر أن تقف الإمارةُ راعياً للانسجام الطائفي، إلا أنها كانت على الدوام موطناً لتشجيع نظامٍ إقطاعيٍّ يحتلُّ فيه أتباعُها الذروةَ والمسيحيون الحضيض. وبتراجع كوارا لمصلحة الولايات الأخرى واجهت النخبةُ الحاكمة فيها معارضةً متنامية من المسيحيين والمتطرفين الإسلاميين الشاجبين للوضع الراهن.

أما في أوقات الازدهار فقد اعتمد كبارُ شخصيات كوارا والمتنفِّذين فيها على الحج لتعزيز نظام التدرُّج الديني والاجتماعي؛ فكان من المألوف أن يتولّى الساسةُ وأربابُ الأعمال في كلِّ عام نفقات الحج عن المئات ممَّن ضاقت عليهم سُبُل الحج، بل إن الحاكم وحده كان في بعض السنوات يتحمَّل نفقات ثلاثين حاجاً. في هذا السياق حاول أحد أرباب الأعمال المسلمين الذين عاينوا جانباً من هذه الأعمال الخيرية أن يعطيني فكرةً عن آثارها السياسية فقال: " تصوَّر، ثمة من الناس مَن يقضي جلَّ سنيّ حياته يدَّخر من المال ما يبلِّغه الحج، وما هو إلا أن يطلب منه بعضُ الساسة أن يحتفظ بماله ويقصد مكة حاجاً على نفقة الحكومة. إنه نفوذ السلطة!"

وبتدهور أوضاع كوارا الاقتصادية وتدني ثرواتها، عاد حكّام إيلورين عاجزين عن استغلال الحج لكسب الدعم لأنفسهم، وفاقدين للأسباب المالية والسياسية التي تمكِّنهم من الاستمرار في رعاية الحج بسخاء. وكان من شأن هذا الضعف في فعالية الحج أن يحمل الأقلِّيةَ الحاكمة على البحث عن سُبُلٍ جديديةٍ لاستغلال الدين لتحقيق مآرب سياسية.

بدأ أمير إيلورين بإلقاء مسؤولية الإخفاقات الشعبية على الأقلّيات المسيحية المحلّية، ونصَّبَ نفسه مدافعاً عن المجتمع الإسلامي المحاصَر الذي أساءت إليه البعثاتُ التبشيرية التي تتلقى تعليماتها من أبوجا والولايات المتحدة. وقد تمكَّن أنصارُ الأمير، عن طريق التعبير عن المظالم السياسية والاقتصادية بأسلوبٍ دينيِّ الطابع، من تحويل كوارا إلى أخطر بؤرةٍ للنزاع الطائفي في نيجيريا، وتأجيج كراهية المسلمين للمسيحيين، وتصوير النخبة الحاكمة كهدفٍ مشؤومٍ للمتعصّبين من كلتا الديانتين.

وقد عزا الحجي ساني لاوال Alhaji Sani A. Lawal، حاكمُ كوارا السابق والمستشارُ الأول للأمير، المشكلةَ إلى اعتماد بابانجيدا على نفرٍ من التكنوقراط المسيحيين الذين صاغوا له برامجَ التقشُّف ونقلوها إلى الأوساط المالية الدولية. وذكرَ لاوال أن بابانجيدا قَبِلَ كثيراً من مطالب الكنائس، ومنها تعزيز حرية العمل التبشيري، لأن العديد من كبار مستشاريه مسيحيون، وكذلك لأنه كان يدرك أن نظامه بدأ يخسر دعم المسلمين.

كان تنامي النشاط الكنسي هذا استفزازياً في إيلورين بوجه خاص، حيث اعتاد المسلمون على العيش مع أقلّيةٍ مسيحيّةٍ ذات وجودٍ رمزيٍّ يُفترَض أن يكون مرئياً لكنه غير مسموع. ومع تضاؤل الفرص واشتداد الوطأة الاقتصادية، استاء المسلمون عندما رأوا المناصب العليا في الجامعات والمرافق المدنية يستأثر بها مرشحون مسيحيون تدلّ مهاراتهم المتفوقة في اللغة الإنكليزية على ارتباطهم بالمدارس الغربية.

إن انهيار الحواجز الاجتماعية القديمة جعل المسلمين في إيلورين أكثر تصميماً من ذي قبل على التمسك بمبدأ فصل مناطق السكن، الذي يعزِّز سيطرتهم التاريخية على المدينة. فاشتكى الأمير من انتشار الكنائس التي تعدُّ خرقاً للحظر المعتاد على بناء الكنائس داخل مركز المدينة القديمة، وادّعى السكانُ المسلمون أن المسيحيين لم يخرقوا الحظر فقط، بل أمعنوا في

إقامة صلوات ترتيل كنسية صاخبة في أوقات نوم الناس. إلا أن احتجاجات الأمير لم تلقَ صدىً كبيراً خارج إيلورين إلا عندما هدَّد بفرض "القانون" القديم الذي ينصُّ على هدم الكنائس غير المرخصة في المنطقة المقيَّدة[18].

هذا في حين كان الحاكمُ السابق يعتقد أن أعظم خطرٍ على مسلمي مدينة إيلورين هو عزلتهم. فراح لاوال يقنع المسلمين المحافظين أن لا سبيل إلى تقدُّم أبنائهم إلا بإدخال إصلاحاتٍ في نظام التعليم الديني، مشدِّداً على إنشاء مدارس تجمع بين الدراسات الشرعية والعلمية، والاعتماد على مؤلَّفاتِ كتَّابٍ مسلمين متحرِّرين، على أن يكونوا من دولٍ غربية ويكتبون باللغة الإنكليزية. وهو يبرِّر ذلك بأن اللغةَ الإنكليزية تحظى بمكانةٍ عاليةٍ بين اللغات تجعلها – دون غيرها – أنسب للمناقشات الدينية من سائر اللغات.

على أن الإصلاح التعليميَّ في إيلورين مع ذلك مازال في بداياته إذا ما قورن بالإصلاح في لاغوس وجوس – حيث تنشئ الحركاتُ الإسلاميةُ أنماطاً عديدةً من المدارس الإسلامية الخاصة في بيئاتٍ متعدِّدة الأديان. وقد تبيَّن لي أن الناس في معظم أنحاء نيجيريا توَّاقون إلى اعتماد التجديد في التعليم الديني من بلدانٍ أخرى تشمل تركيا وباكستان وإندونيسيا. ومع أنني وجدتُ اهتماماتٍ مشابهةً في إيلورين، فقد أعجبني شروع القادة هناك بالاهتمام بعددٍ من المدارس الجديدة التي بدأت تترسَّخ في بلادهم.

ومازالت عائلاتُ إيلورين المرموقة ترسل أبناءها إلى المملكة العربية السعودية بغية متابعة دراساتٍ إسلامية، ثم ليكتشف هؤلاء فيما بعد أن شهاداتهم ليست ذات قيمةٍ تُذكر في سوق العمل النيجيري. وطبيعيٌّ أن يكون هذا الواقعُ حافزاً على إنشاء مدارس يمكنها أن تقدِّم لمثل هؤلاء تعليماً دينياً ملائماً، على حين توفِّر للشباب المسلم الأصغر سنّاً ما يحتاجونه من مهاراتٍ وخبراتٍ في عالَم الأعمال، علماً أن سوق التعليم الإسلامي الحديث رائجٌ اليوم في نيجيريا، وأن آلافاً من أرباب المشروعات يشجِّعون هذا المطلب ويعملون على الوفاء بمستلزماته.

أما كوارا فقد دخلت في هذه الحركة متأخرة لأن العلماء المحلِّيين مابرحوا يرون في المدارس الجديدة فروعاً لجماعاتٍ يعدّونها إما ابتداعيةً كالأحمدية، وإما تقليديةً متزمتة كالأصولية المنتقدة للطبقات الصوفية. ومع أن نخبة كوارا عريقةٌ بأساتذتها الدينيين ومكانتهم الرفيعة، إلا أنها اليوم ترى أتباعها يبحثون عن أفكارٍ جديدةٍ في أماكن أخرى ولاسيما في أبرز مراكز الثروة والسلطة في نيجيريا.

كادونا: "المافيا"، والأمراء، والقبائل

من أوضح صور التمييز الإقليمي في ظلِّ الحكم العسكري التباينُ بين الصعود المستمر لفعالية الحج في كادونا، وهبوطها الحادّ في لاغوس. فكادونا مركزُ حجٍّ رئيسيٌّ بقطع النظر عن الجهة التي تمسك بزمام الحكومة الاتحادية. ويلاحَظ أن الحجَّ في كادونا، بمقارنته بالحج في عموم نيجيريا، قد أصاب فائدةً كبرى من عصور الازدهار والديمقراطية، ولم يتأثر كثيراً من سنوات الكساد والدكتاتورية. وكادونا هي الولاية الوحيدة التي بقيت فيها معدّلاتُ الحج فوق المتوسط القومي طوال العقود الثلاثة الفائتة. أما في لاغوس فقد كان الحج متقلِّباً؛ إذ كانت هي أكثر المناطق تأثراً من تبدُّل أنظمة الحكم. وفي نيجيريا الديمقراطية كان مسلمو لاغوس روّاداً في الإقبال على الحج، إلا أنهم تراجعوا بسرعة مع تغيُّر الأوضاع السياسية. ولو نظرنا إلى معدّلات الحج النيجيري ما بين عامي 1982 و 1999 لوجدنا أنها هبطت إلى ثلث ما كانت عليه في الماضي، إلا أن الهبوط في لاغوس بالذات قد انحدر إلى سُبُع مستواه السابق. وكانت لاغوس لا تزال مركزَ الحج الرئيسيَّ في الجنوب، إلا أن تفوُّقها على سائر الولايات اليوروبية قد تلاشى.

تتمتع كادونا بمزايا سياسيةٍ واقتصاديةٍ وثقافية تجعلها أكثر مناطق البلاد مرونةً في فعالية الحج؛ فقد كانت القلبَ السياسيَّ للشمال منذ العصور الاستعمارية، وهي اليوم - في رأي الكثيرين - تؤدي دوراً مشابهاً

لنيجيريا بأسرها. وقد أصبحت في عهد أحمدو بيلو عاصمةَ المنطقة الشمالية، ومركزَ تدريبٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ للنُّخبة التي حكمت نيجيريا بعد الاستقلال. وكان البريطانيون قد اتّخذوها موقعاً استراتيجياً للانطلاق لغزو الإمارات. يُذكر أن أقوى الأحزاب السياسية في الشمال كانت تتَّخذ مقرّاتٍ لقيادتها في كادونا، وكذلك فإن كبار القادة العسكريين قد تخرَّجوا في كلية الأركان التي توجد هناك. وكثيراً ما يصف النيجيريون كادونا بدوائرها السياسية والعسكرية والتجارية المتداخلة بـ "مافيا كادونا" ـ نسبة إلى عصبةٍ سِريّةٍ أسطوريّةٍ دأبَ الصحفيون والأكاديميون على دراستها منذ الحرب الأهلية[19]. ولعلَّ إعجابَ الناس بها ناشئٌ عن اعتقادٍ واسعٍ بأنها بالذات، وليس لاغوس أو أبوجا، هي مكان اجتماع "صنّاع الملوك" من المسؤولين القائمين على اختيار المرشحين للمناصب السياسية في نيجيريا.

ظهرَ دور كادونا الحيوي واضحاً في محاولة الانقلاب الشهيرة بقيادة جيديون أوكار Gideon Okar الذي كاد يطيح ببابانجيدا في سنة 1990. فقد نجح تمرُّدُ ضباط الجنوب في لاغوس وأبوجا، لا في كادونا التي تتمركز فيها أكبر تجمُّعات الجيش. وبينما كانت محاولةُ الانقلاب جاريةً، أعلن قادتُها أنهم عازمون على فصل ولايات أقصى الشمال (وأغلبها من المسلمين) عن الدولة، وهنا أعلن ضباط كادونا دعمهم للحكومة، فانهار التمرُّد.

وإذ تُعْرَف كادونا على أنها مصدر السلطة، فإن سمعتها هذه تعود على مديري الحج فيها بنتيجةٍ مزدوجة الأثر: صحيحٌ أنهم يتلقَّون دعمَ جيرانهم من ذوي النفوذ التجاري والحكومي الواسع، وهذا جانبٌ إيجابيٌّ سارٌّ؛ إلا أنهم يجدون صعوبةً كبرى في التعامل مع مئاتٍ من طلبات الحج التي لا يمكن رفضها بحال! ويعبِّر أحد مديري الحج في كادونا عن ذلك بقوله: "كيف يمكنك إعلام كولونيل متقاعد وزوجته أنه يتعذَّر عليهما أداء الحج هذا العام لأن أبوجا قد غيَّرت موعد قبول الطلبات؟"

ثم إن وكالة الحج في كادونا تتمتع بقدرٍ من الاستقلال عن الإدارة العامة أكبر من أيٍّ من مجالس الحج في المناطق الأخرى؛ فهي قادرةٌ على تمويل خدمات حجٍّ كثيرة لا تستطيع الولايات الأخرى تقديمها. ومما يمتاز به حجاج كادونا أنهم يُعْطَوْنَ مجموعةَ صورٍ فوتوغرافية وأسورةَ تعريفٍ وشهاداتٍ طبيّة، حرصاً على متابعة المسافرين وأمتعتهم على الطريق. كذلك يوزِّع مجلسُ الحج عدداً من النشرات المجانية، منها ثلاثة كتيّباتٍ إرشادية باللغة الإنكليزية ولغة الهاوسا، إضافةً إلى نسخةٍ خاصة بلغة الهاوسا التقليدية مكتوبةٍ بحروفٍ عربية. وثمة شعارٌ على صفحة الغلاف يلخِّص العنايةَ الفائقةَ التي يوليها مجلسُ الحج لما يقدِّمه من خدمات: صورةٌ للكعبة المشرَّفة تحيط بها هذه العبارة: "الحج المريح غايتنا".

ويعبِّر مجلسُ الحج في كادونا، بإصداره دليلَ الحج الخاصِّ به، عن نفاد صبره من تباطؤ الحكومة الاتحادية في حسم سياسةٍ هامة. إن نيجيريا هي الدولة الوحيدة من بين الدول التي زرتُها لا تُصْدِر إدارةُ الحج المركزية فيها أيَّ كتيِّبٍ رسميٍّ يعرض مناسك الحج ويلقي إضاءاتٍ على معانيها. ومع أن مديري الحج في أبوجا مجتمعون على ضرورة نشر مثل هذا الكتيب، إلا أنهم مختلفون على محتواه. وقد عرضتُ شخصياً على مدير الحج الوطني مرةً عدداً من الكتيبات الإرشادية التي اجتمعتْ لديَّ من الأسواق والمكتبات المجاورة، إلا أنه أصرَّ على أنها ملأى بالمعلومات الخاطئة، دون أن يعرض بديلاً.

وفضلاً عن المزايا السياسية التي ينعم بها حجُّ كادونا، فهو يلقى دعماً اقتصادياً متعدِّد الجوانب. ولربما كانت كادونا العاصمة هي المدينة الوحيدة التي يمكن أن يتمتع سكانها بحياة الطبقة الوسطى. أما في خارج العاصمة فيتنوَّع السكانُ عِرقياً ودينياً: فالمسلمون أغلبيةٌ في الشمال، والمسيحيون في الجنوب. وفي المناطق الوسطى يلاحَظ توازنٌ في الأديان الرئيسية، ويؤلِّف المسلمون أغلبيةً ضئيلةً في العاصمة وسائر الولاية، علماً بأن الدين عاملٌ

قويٌّ في تحديد الصفة العِرقية والحالة الاجتماعية؛ فالمسلمون في أغلبيتهم ينتمون إلى شعب الهاوسا Hausa أو الغواري Gwari، في حين يتحدَّر المسيحيون من نحو خمسين قبيلة متفرقة[20].

في هذا الجزء من وسط نيجيريا يعدُّ التحوُّل الديني والتزاوج بين أفراد الأعراق من الأمور المذمومة المستنكرة باعتبارها خروجاً على الولاء للجماعة العِرقية التي ينتمي إليها الأفراد. وعندما سألتُ بعضَ مديري الحج عن سبب أجواء التوتُّر الدائم بين المسلمين والمسيحيين في كادونا، اتفقت آراؤهم على أن المشكلة ذات أصولٍ عِرقيةٍ وسياسية أكثر منها دينية. واختصر أحدهم المسألة بقوله: "نحن نختلف عن اليوروبيّين الذين لا يلتفتون إلى انتماءات أقربائهم الدينية؛ فإذا ما تحوَّل أحد افراد شعبنا إلى دينٍ آخر نَبَذَتْه أسرتُه سواء أكان مسيحياً أم مسلماً."

إن التكافؤ النسبي في حجم الجماعات الدينية ليس دليلاً على نفوذها السياسي في الماضي أو الحاضر؛ فمعظم الولاية تقع ضمن نطاق ما كان يُعرف سابقاً بإمارة زاريا Zaria، الجزء الواقع في أقصى جنوب مملكة هاوسا التي كانت بوابة غزوات المسلمين وغارات العبيد على منطقة الحزام الأوسط الوثني. وقد رفض كثير من القبائل الاندماج في الإمارة، فقبلت بالتبعية أو بالانتقال إلى غابات معزولة. ثم أصاب الضعفُ جنوبَ الإمارة بسبب بُعده عن مقرّ الحكم، وكان على السلطة الملكية أن تَقْنَع بنظامٍ مرنٍ للولاء قد يقتضي من السلطان شراء النصرة من الحكام والمجالس القبلية[21]. وكان ذلك شكلاً من أشكال "الحكم غير المباشر" الذي بدا شاقّاً على البريطانيين. وقد أدّت محاولةُ الإدارة الاستعمارية فرضَ نظامٍ أكثر كفاءة إلى توسيع دائرة نفوذ الحكام المسلمين على القبائل الجنوبية التي بقيت في أغلبيتها غير مسلمة.

في الوقت نفسه، تعمَّد البريطانيون إفسادَ الوضع الديني الراهن في كادونا، خلافاً لوعودهم بدعم الدين في المناطق الشمالية بمجملها[22]. وقد

ميَّز البريطانيون بين "المناطق المسلمة" و"المناطق الوثنية"؛ فهذه الأخيرة كانت مناطق انتقالية كما في جنوب كادونا حيث الحكّام مسلمون والسكان غير مسلمين. وفي إبان الحرب العالمية الأولى سُمِح للبعثات التبشيرية المسيحية بدخول المناطق الوثنية، ثم بحلول الثلاثينيات رُفعت عنها القيود التي كان يُقصد منها حماية الإسلام في سائر منطاق الشمال.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية تنادى المسيحيون إلى الاحتجاج على استمرار حكم المسلمين للمناطق الجنوبية من كادونا. وراجت المدارس التبشيرية بصفةٍ خاصة في مدنٍ من مثل كاجورو، حيث كانت القبائل المحليّة تحتفظ بحقِّها في انتخاب شيوخها. والتحق بهذه المدارس طلبةٌ مسيحيون من نواحي أخرى من كادونا، ليعودوا إلى مناطقهم لنشر مطامح الحكم الذاتي. وسرعان ما بدأت حركةٌ انفصالية بقيادة المسيحيين تطالب بدولةٍ جديدة على أراضٍ في جنوب العاصمة[23].

ولربما كان لدى سكان جنوب كادونا من الأسباب ما يسوِّغ اعتقادهم بأن سعيهم إلى تحقيق الحكم الذاتي قد أُغفلَ إرضاءً لجماعاتٍ أخرى ذات نفوذٍ أكبر. وفي سنة 1987 سُمِحَ لمقاطعات أقصى الشمال من كادونا بتأليف ولايةٍ جديدةٍ هي ولاية كاتسينا، كانت خصوصيتها الدينية والتاريخية - خلافاً لجنوب كادونا - مغنماً مفيداً لا عقبةً معيقة، لأن جلَّ سكانها من المسلمين، ومَن تخرَّج منهم في كلية كاتسينا - وهي واحدة من أقدم المدارس الغربية في شمالي نيجيريا - تبوَّؤوا مناصب رفيعةً في الجيش والحكومة منذ أيام أحمدو بيلو.

من أهم الفوائد التي جنتها كاتسينا من استقلالها بالحكم أن توفرت لها فرصة تطوير فعالية الحج فيها. وقد تمتَّعت بالفعل بحجٍّ قويٍّ على مدى عقودٍ عديدة بفضل علاقاتها القديمة بالشرق الأوسط وغرب إفريقية. ومن المعروف أن مجموعةً كبيرةً من مواطني كاتسينا أقاموا في المملكة العربية

السعودية منذ عدة أجيال، وأصبح أولادهم مواطنين سعوديين وعملوا كسماسرة في التجارة النيجيرية مع بلدان الخليج[24].

كذلك تستفيد كاتسينا من التدفق المستمر للحجاج الناطقين بلغة هاوسا القادمين من جمهورية النيجر المجاورة. ويلاحَظ أن كثيراً من مواطني النيجر يفضِّلون البدء بالحج من كانو لأنها أقرب إلى مواطن إقامتهم من نيامي عاصمة بلادهم. ومعظم هؤلاء يَعْبرون كاتسينا حيث يشترون جوازات سفرٍ مزيَّفة ويسجَّلون كحجاج نيجيريين[25].

ومنذ أن استقلت كاتسينا بإدارتها تيسَّرت استفادتُها من هذه الفرص أكثر فأكثر، ولاسيما عندما عيَّن الرئيسُ أباتشا جنرالاً سابقاً من كاتسينا مديراً للحج الوطني. وتؤلِّف كاتسينا في منظومة الحج اليوم "منطقةً" كاملة ـ هي الوحيدة بين ثماني مناطق حج تكرِّس كامل كوادرها وميزانيتها لمصلحة ولايةٍ واحدة.

وفي سياق التنافس على الاستقلال كولاية، فقد أُغفل المسيحيون في كادونا لمصلحة مجموعةٍ من المسلمين لم ينتفعوا بشيءٍ من مزايا كاتسينا، بل إن كادونا الجنوبية خسرت الاسم الذي اختاره قادتها لولايتهم المفترضة، وهو ناساراوا، علماً بأن ولاية ناساراوا قد أنشئت في سنة 1996 لا في جنوب كادونا، بل في غرب بلاتيو المجاورة. وقد تناولت الولايةُ الجديدةُ بالفعل مظالمَ أقلِّيةٍ دينيةٍ تشكو من التمييز، على أن المسلمين هم الذين استنكروا تنامي النفوذ المسيحي في جوس[26].

ويجسِّد الحجُّ في كادونا الانقساماتِ الكبرى التي تميِّز المنطقة الوسطى. وتمثِّل معدّلاتُ الحج في الحكومات المحلّية انقساماتٍ بين الشمال والجنوب، وبين المدينة والريف، وبين الطبقة العليا والطبقة العاملة[27] (الجدول A 3-9 والشكل 5–9).

وتحظى مدينة كادونا بأعلى معدّلاتٍ للحج، إذ يصل الإقبال على الحج فيها أربعةَ أمثال باقي مناطق الولاية. وتشير الإحصاءات إلى أن سكان منطقة كاوو، أغنى مناطق الولاية، يؤدّون الحج بوتيرةٍ تزيد أربع مرات على وتيرة حج المسلمين في ماكيرا، أفقر المناطق حالاً.

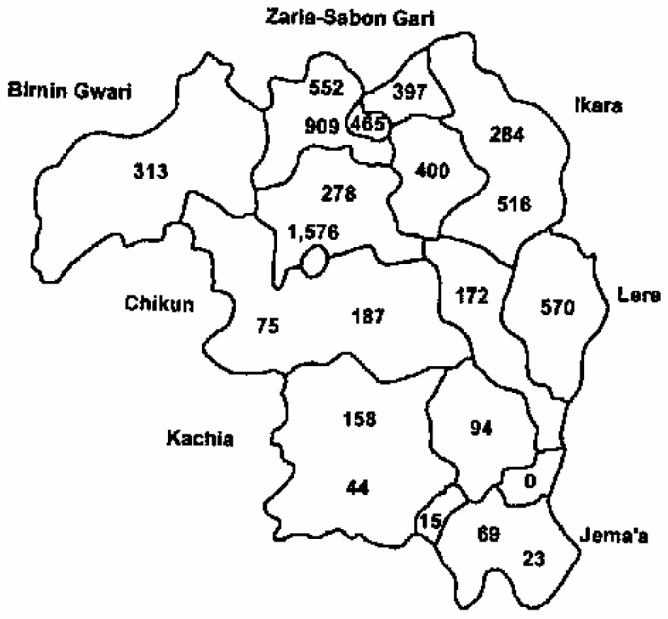

الشكل 5-9 معدَّلات الحج في الحكومات المحلّية لولاية كادونا سنة 1999

وتسود مظاهر تباينٍ صارخٍ في نشاط الحج بين المناطق الحضرية والريفية في كلِّ ناحيةٍ من الولاية. وبقطع النظر عن قوة الحج أو ضعفه في منطقةٍ معيَّنة، فإن معدّلاته في مراكز المدن عموماً تزيد ضعفين أو ثلاثة أضعافٍ عليها في المناطق الريفية. وتتصدَّر مدينةُ زاريا جميعَ المناطق الشمالية بمعدَّل حجٍّ أعلى بقليلٍ من معدَّله في أحياء الطبقة العاملة في عاصمة الولاية. وفي المناطق الشمالية الشرقية يتركز الحج في مدن الأسواق، قريباً من الطريق السريع الذي يصل بين جوس وكانو. وتظهر أدنى معدّلات حج بصفةٍ خاصة في المناطق الريفية من شمال الولاية.

إلا أن فعالية الحج أضعفُ في الجنوب الحضري للولاية منه في الشمال الريفي؛ فهي أكثر شيوعاً بين الأقليات المسلمة القاطنة في المراكز التجارية والإدارية مثل كوجاما وكاتشيا وكافنتشان.

وتتفاوت الخلفيةُ الاجتماعية لحجاج كادونا تفاوتاً كبيراً من منطقةٍ إلى أخرى، ولاسيما من حيث الجنس والعمر (الشكل 6-9)؛ فالعوامل الاقتصادية والسياسية تحدِّد الحجمَ الإجماليَّ للحج، في حين أن العِرقيةَ ومستوى التعليم هما أكثر العوامل أهميةً في تحديد حجم المشاركة النسائية[28].

ويلاحَظ أن نسبة الإناث من الحجيج أكثر وضوحاً في مدينة كادونا منها في أيِّ مكانٍ آخر في الولاية، على أن عددَ الإناث والذكور من الحجيج يكاد يكون متساوياً في كل المناطق الأخرى تقريباً، باستثناء مجموعةٍ صغيرةٍ تتألَّف في معظمها من الموظَّفين المدنيِّين الذكور والجنود الذين يُسمح لهم بالالتحاق بالحج الرسمي دون أقاربهم.

كذلك يلاحَظ أن المشاركةَ النسائيةَ قويةٌ في أوساط الطبقة الوسطى والطبقة العاملة، وأن أصحاب الدخل المحدود أقل إقبالاً على الحج من صنوانهم الأثرياء، ولكن عندما تتمكن العائلاتُ الفقيرةُ من ادّخار ما يكفيها للحج، فإنها تتيح لنسائها الفرصَ نفسها التي تتمتع بها نساءُ الطبقة الثريّة.

من الملاحظ أيضاً أن حجّاج كادونا خارج العاصمة هم من الذكور في الغالب الأعمّ، ومع ذلك تتفاوت غلبةُ الذكور إلى حدٍّ بعيد، فترتفع في الشمال وتنخفض في الجنوب.

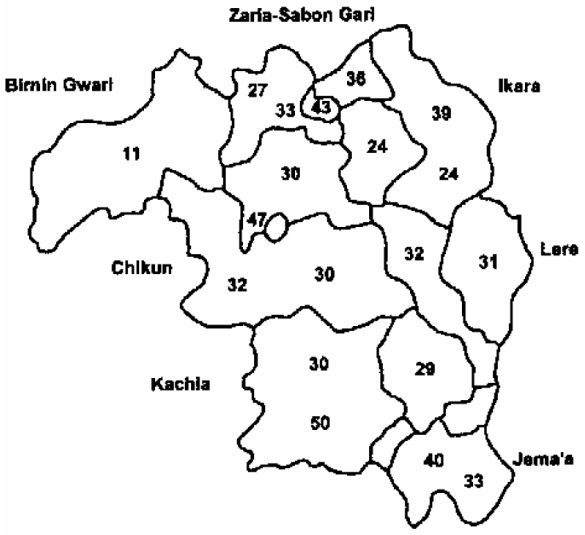

الشكل 6-9 النسبة المئوية للإناث من الحجيج في الحكومات المحلّية لولاية كادونا سنة 1999

على أن أكبر الفروق في المشاركة النسائية يظهر بوضوح فيما بين المجموعات العِرقية، ولاسيما بين الجماعات من غير الهاوسا ـ الغواري في الشمال الغربي مقابل القبائل الجنوبية؛ فيلاحظ أن نسبة النساء بين حجاج الغواري تبلغ واحداً إلى تسعة فقط، في حين تقارب نسبةُ النساء في الجنوب 40 بالمئة من إجمالي عدد الحجاج.

تؤلِّف إناث الهاوسا عادةً نحواً من 30 بالمئة من عدد الحجاج. على أن ثمة تبايناً ملحوظاً ضمن مجتمعات الهاوسا: فالطابع النسائي أكثر شيوعاً في ضاحية سابون غاري من زاريا، وهي إضافةً إلى ذلك موئلٌ للمهاجرين من مختلف البيئات العِرقية والدينية.

وتُظهِر الدراساتُ الإحصائيةُ أن معدّل الهجرة إلى زاريا بالذات ليس ذا بالٍ مقارنةً بمعدَّل الهجرة إلى سابون غاري، وهو الأعلى بين مدن الولاية كلها سوى العاصمة[29]. وإن اختلاف نماذج التحضُّر في المدينتين يولِّد تبايناً لافتاً

في نسبة الحجاج فيهما؛ فعدد الحجاج أكبر في زاريا حيث يعيش المسلمون في عزلةٍ نسبية، إلا أن معدّلات الذكور والإناث من الحجيج أكثر توازناً في سابون غاري حيث تخلق التعدديةُ الاجتماعية مرونةً في وظائف الجنسين من المسلمين.

ويبدو إقبالُ النساء على الحج في حدوده الدنيا في المناطق القريبة من الحدود مع كاتسينا وكانو، من مثل: غيوا وكودان وسوبا وكوباو. هذه المدن والقرى هي في صفاتها أقرب إلى قلب أرض هاوسا الريفي شمالاً منها إلى المجتمعات الواقعة جنوب زاريا، حيث يتعايش المسلمون النطقون بلغة الهاوسا مع العديد من المجموعات العِرقية والدينية.

وفي مجتمع كاتسينا المتجانس نسبياً يؤكِّد طابعُ الهاوسا على وجود أصولٍ عِرقيةٍ تفصل بين القبائل والطبقات. على أن الأمر مختلفٌ في بيئة كادونا التي هي أكثر البيئات تنوعاً، حيث يُنظَر إلى الهاوسا هناك على أنهم مجتمعٌ منفتح يرحِّب بكلِّ مَن يعتنق دينَهم ويتكلَّم لغتهم ويتَّمل عاداتِهم[30].

هذا ولا يتجاوز متوسط عمر الحجاج في كادونا تسعاً وثلاثين سنةً للرجال وستاً وثلاثين سنةً للنساء. ومن النادر أن تتجاوز فروق السنّ بين الذكور والإناث خمس سنوات في المتوسط. وقد لوحظ أن المناطق التي تتمتع بأعلى إقبالٍ نسائيٍّ على الحج هي في الغالب عين المناطق التي تؤدِّي فيها النساءُ الحجَّ في وقتٍ مبكِّرٍ من أعمارهنّ.

ويلاحَظ أيضاً أن الإناث من الحجاج يكنَّ أصغرَ سنّاً وأربى عدداً حيثما يكون تسجيلُ الإناث في المدارس الابتدائية والثانوية أعلى من المتوسط. ولعلّ العلاقة بين معدّلات حجِّ الإناث ودرجة تعليمهنّ تَظهر أجلى ما تكون في مدينة كادونا، إلا أنها مطَّردةٌ أيضاً في كلِّ أنحاءِ الولاية[31].

ثم إن درجةَ التعليم والعِرقيّة معاً يوفِّران تفسيراً لإقبال الإناث على الحج في كادونا؛ فقد دخلَ التعليمُ الحديثُ المجتمعاتِ العِرقيةَ في المنطقة

بمعدّلاتٍ مختلفة، ليضيِّق الفجوةَ بين الجنسين في حالاتٍ معيَّنة، ويوسِّعها في حالاتٍ أخرى.

وفي كثيرٍ من المناطق الريفية وفَّرت البعثاتُ التبشيرية مستوىً من التعليم والخدمة الطبية أفضل ممّا وفَّرته الحكومة. ومعظم المدارس والعيادات مفتوحةٌ للعامّة بقطع النظر عن انتماءاتهم الدينية والعِرقيّة. وهي تجتذب بوجهٍ خاصٍّ المسلمين الذين يعيشون خارج مناطق الهاوسا، حيث اعتادت العائلات هناك على تجاوز الفروق الطائفية ابتغاء تحقيق الاحتياجات الأساسية.

على أن المدارس التبشيرية لم تحقِّق نتيجةً مماثلةً في بيرنين غواري، حيث تواجه النسوة قيوداً اجتماعيةً أقسى مما تواجهه نساء الهاوسا. فقد ذُكِرَ أن المعلِّمين التبشيريين في مجتمعات غواري كانوا يُقبَلون على أساسٍ انتقائي، فيرسلُ الآباءُ إليهم أبناءَهم أكثر مما يرسلون بناتهم. وإذا أُخذ الحج والتعليم معاً معياراً، وُجِدَ أن الفجوةَ بين الجنسين أكبر ما تكون بين الغواري، وهي أضيق بين الهاوسا، وأصغر ما تكون بين الأقلّيات المسلمة في الجنوب.

لاغوس: الأسرة، والهجرة، والمجتمع

إن لاغوس نسخة طبق الأصل عن كادونا فيما يتصل بالسياسة والاقتصاد والثقافة. وإذا كانت كادونا هي المعقلَ الهادئ للنخبة في الشمال، فإن لاغوس تمثِّل نقطةَ انطلاق المعارضة العنيفة في الجنوب.

ومع أن لاغوس بقيت عاصمةَ نيجيريا التجاريةَ، سواءٌ أكان الاقتصادُ مزدهراً أم متدهوراً، فإن بروزَ المدينة بات في حدِّ ذاته مصدرَ ضعف؛ إذ باعتبارها مركزَ الصناعة والتجارة الخارجية، فهي أقلُّ المدن قدرةً على تحمُّل الاختلالات الشديدة في تدفُّق الأموال والبضائع من الخارج، وأكثرها تأثراً بسلبيات التكيُّف البنيوي، ولاسيما في أحياء الفقراء وضواحي الطبقات العاملة. وبحلول حقبة التسعينيات من القرن الماضي، كانت هذه المناطق

النائية تضمُّ قرابة 80 بالمئة من سكان لاغوس الكبرى، مقابل 40 بالمئة في سنة 1963 و 20 بالمئة في سنة 1952[32].

وبالنظر إلى واقع ولاية لاغوس بمجملها تجد أن فعالية الحج مضطربةٌ اضطرابَ توزُّع الثروة [33] (الجدول A 4-9 والشكل 7-9)؛ فالحج في لاغوس آيلاند الصغيرة أقوى ثلاث مرات منه في أيِّ منطقةٍ أخرى ــ وهذه نتيجة طبيعية للحشد المفرط للمرافق والنشاط التجاري في منطقةٍ مركزيَّةٍ هي في حِلٍّ دائمٍ من حوادث الفيضانات والحرائق وأعمال الشغب.

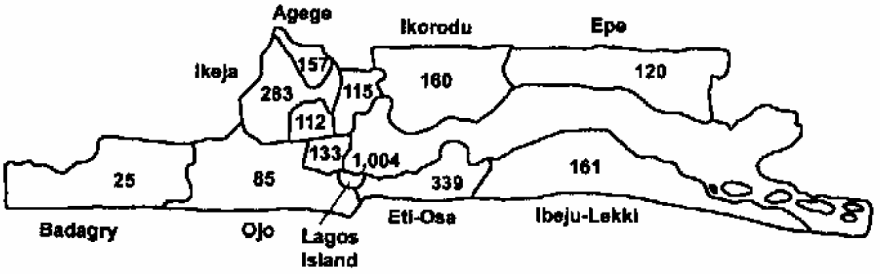

الشكل 7-9 معدّلات الحج في الحكومات المحلّية لولاية لاغوس سنة 1999

وبالانتقال من لاغوس آيلاند نحو الخارج تجد أن فعالية الحج مرتبطةٌ بالتوزُّع السكني ونوعيّته، فتهبط معدّلاتُ الحج بشدة في مناطق الطبقة العاملة القريبة إلى المدينة، وترتفع في الضواحي البعيدة، حيث تتنوع المهن والزراعات. وفي المناطق شبه الريفية من الولاية تنخفض المعدّلاتُ إلى أدنى مستوياتها في المناطق البحرية الفقيرة المتاخمة لساحل المحيط الأطلسي وأهوار بحيرة لاغوس.

وتمتلك لاغوس آيلاند، إضافةً إلى تفوُّقها الاقتصادي، مواطنَ قوةٍ دينيةٍ وسياسية من شأنها أن تعزِّز فعالية الحج[34]. ففي إبان حقبة الاستعمار عاين المسلمون من سكانها الأرضَ والسلطةَ وهي تنتقل إلى أيدي الأوربيين والإفريقيين المهاجرين المتمغربين. وعندما أطلق السكانُ أخيراً حركةً سياسيةً

لتحرير الجزء الخاص بهم من الجزيرة، كان الإسلام حاسماً في صوغ شخصيةٍ موحّدة وشبكةٍ من المؤسسات. وكانت المساجدُ والجمعيات الخيرية منابر لتحالف الزعماء وساسة الطبقة الوسطى، الذي كان يسيطر على الحكومة المحلية بعد الاستقلال.

تتميَّز الجماعات الإسلامية في لاغوس آيلاند بنظامها المحكم وتعدُّديَّتها وروح التنافس فيما بينها. وقد سعت الفرق المتنافسة إلى بسط سيطرتها على المساجد الرئيسية منذ القرن التاسع عشر. والذين لم يفلحوا أقاموا حلقاتِهم الخاصة بهم، فأتاحوا بذلك لأنفسهم مصادر متعددةً للابتكار والتجديد والمعارضة.

وكان أكبر تهديدٍ للعلماء المحافظين متمثِّلاً بالحركة الأحمدية المجدِّدة التي لاقت قبولاً حسناً لدى أثرياء المسلمين والخاصة المثقَّفة منهم في لاغوس آيلاند؛ فكان لأتباع الأحمدية دور الريادة في في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية، والتوفيق بين تعاليمه وقوانين العلم والفلسفة. وكان لهم قصب السبق في إطلاق أول مدرسة خاصة تجمع بين العلوم الدينية والدنيوية - وهي تجربة سرعان ما امتدَّت إلى عشرات مدن يوروبا وصولاً إلى إيلورين[35].

ومع تنامي العداء للآراء الأحمدية خشي أتباعُها أن تقوم الحكومةُ بتأميم شبكة مدارسهم التي تدرُّ بالرِّبح. وكانت الرغبةُ في حماية الإنجازات التعليمية التي حقَّقتها الحركةُ الأحمدية من الأسباب الرئيسية التي دعت إلى انقسام الحركة إلى مجموعتين في ثمانينيات القرن الماضي. فأرادت جماعةٌ ضعيفةٌ الحفاظَ على روابطها مع النظام الأصلي في الهند، في حين أنهتْ مجموعةٌ "نيجيريةٌ" كبيرةٌ نزاعَها مع الاتجاه الإسلامي السائد بإقرارها بالحقيقة المطلقة لنبوَّة محمد ﷺ. وتمكَّنت المجموعةُ الجديدة، واسمها أنوار الدين، أخيراً من السيطرة على تلك المدارس، ومازالت تديرها كنظام مستقل[36]. وكان من النتائج الهامة للتنافس بين الاتجاهات الإسلامية في

لاغوس آيلاند أن مظاهر التجديد التعليمي التي أدخلتها الحركةُ الأحمدية كانت حافزاً إلى ظهور مدارس أخرى مشابهة؛ فالجزيرةُ اليوم تزخر بالمدارس الخاصة التي تقدِّم نظاماً تعليمياً إسلامياً حديثاً للبنين والبنات من مختلف الطبقات الاجتماعية.

وترتفع معدّلات الحج أيضاً في إيتي - أوسا وإيكيجا، حيث يتمتع المسلمون بمستوياتٍ معيشيةٍ عالية؛ في حين تهبط المعدّلاتُ إلى حدودٍ دنيا في المناطق التي تقع عند أسفل السلّم الاقتصادي، من مثل إقليم باداغري في الجنوب الغربي، وإقليم إيبي في الشمال الشرقي الذي يضمّ قرىً معزولةً مازال أهلها يعتمدون في معيشتهم على صيد الأسماك في المقام الأول.

وهناك عددٌ من الأقاليم يتمتّع بمعدّلات حجٍّ متوسطة، وهي تقع بين حدَّي الغنى والفقر، أي بين المركز والمحيط، ثلاثةٌ منها (أجيجي وإيكورودو وإيبيجو - ليكي) مناطق زراعية.

ومعدّلات الحج لا بأس بها في منطقة لاغوس مينلاند التي تؤلِّف الطبقاتُ العاملةُ معظمَ سكانها، وهي الجزءُ من من المدينة الواقعُ في أقصى الغرب منها، والذي يضمّ أكثر من 70 بالمئة من سكانها، وتمثِّل نقطةَ التقاء طرق المواصلات وخطوط السكك الحديدية التي تربط لاغوس آيلاند بسائر مناطق البلاد. وأكثر ما يميِّز لاغوس مينلاند ارتفاع معدّلات حج الإناث فيها، إذ إن 60 بالمئة من حجاجها من الإناث، علماً بأنها لا تتمتع بريادةٍ إقليميةٍ في مضمار الحج، لكنها تُظهِر اتجاهاً مثيراً يجسِّد حالة الحج في عموم الولاية: حجٌّ متراجعٌ، للنساء دورٌ محوريٌّ فيه.

وفي لاغوس، كما في كادونا، تعدّ الثقافةُ أكثرَ أهميةً من السياسة أو الاقتصاد في تفسير الإقبال النسائي على الحج. وفي سياق مقارنة الحج النسائي في لاغوس وكادونا تَبرز ثلاثة أوجه للثقافة هي: البنيةُ الأُسَريَّة والهجرة والأصول المحلّية، وكلٌّ منها عاملٌ من شأنه أن يشجِّع على

المشاركة النسائية في الحج، إلا أن مدى الإسهام سيتفاوت تبعاً لطبيعة المجموعة المقارَنة.

وللبنية الأُسَريَّة أثرٌ في الحج النسائي، وهذا العامل أكثر وضوحاً بين اليوروبا منه عند الهاوسا والغواري؛ ففي لاغوس، حيث تتمتع النساء اليوروبيات بحريةٍ أكبر، ليس ثمة فجوةٌ في فعالية الحج بين النساء والرجال. أما في كادونا، فإن مجتمعات الهاوسا والغواري تميل إلى خلق تفاوتٍ كبيرٍ لمصلحة الذكور.

وفي داخل لاغوس نفسها يلاحَظ أن تفاوت المشاركة النسائية يتَّصل بالفروق العِرقية بين جماعات يوروبا؛ فقد وُجد أن الحج النسائي أعلى عند المهاجرين من غير المهاجرين، بل إنه متفاوتٌ بين المهاجرين أنفسهم تبعاً للولايات التي ينحدرون منها. وبالتركيز على الأقاليم الستة الرئيسية يلاحَظ أن معدّلات الحج النسائي تعبِّر عن الفروق التي أوجدها المهاجرون في المجتمعات بعد وصولهم إلى المدينة. فالحج النسائي - حتى بين اليوروبيين - أكثر نشاطاً في الأحياء القديمة المنظَّمة منه في المناطق العشوائية التي تتفشَّى فيها الجريمة، حيث تنعدم المؤسسات الطوعية والحكومات المحلية، أو تكون في أطوارها البدائية في أحسن الأحوال.

وعامل البنية الأُسَريّة مفيدٌ في معرض مقارنة اليوروبا بغيرها من المجموعات العِرقية، في حين أن عاملَي الهجرة والأصول المحلّية مهمّان في تمييز المجموعات اليوروبية الفرعية التي تعيش جنباً إلى جنب في لاغوس.

ويرى كثيرون من اليوروبيِّين أن ارتفاع عدد الإناث من الحجاج في لاغوس يُبرزُ المكانةَ العالية للنساء اليوروبيات في الأُسر الحضرية، مقارنةً بنظائرهنَّ من الهاوسا. وعندما سألتُ مديري الحج في لاغوس - إناثاً وذكوراً - لماذا يغلب عددُ الإناث عددَ الذكور فيما توفده ولايتُهم من حجاجٍ إلى مكة، أجابوا إن الرجال اليوروبيين يفاخرون بإرسال أمهاتهم إلى الحج.

ووفقاً لإفادة مدير مجلس الحج في لاغوس، فإن المرأة إذا كانت طاعنةً في السنّ وكان أولادها من ذوي الموارد الضعيفة، أرجأ الأبناءُ حجَّهم لكي تستطيع والدتهم أداء فريضتها أولاً. وأضاف: "إن الأم في عائلات يوروبا هي التي تتولى تعليم أطفالها، ولاسيما الذكور منهم، أمورَ دينهم. ولهذا السبب تلاحظ متانة علاقة الأبناء بأمهاتهم وسعيهم إلى تحقيق أمانيهنّ بأداء فريضة الحج."

واعتقدتُ بادئ الأمر أن المدير كان يبالغ في التعميم، وأن تفسيره لارتفاع نسبة حج النساء في لاغوس مبعثه التفاخر العِرقي الذي يسمعه المرء في كلِّ مكانٍ من نيجيريا. كان ذلك قبل أن أطَّلع على الخصائص السكانية لحجاج لاغوس وأقابلها بنظائرها لحجاج كادونا.

ويلاحَظ أن نساء يوروبا أكثر إقبالاً على الحج من نساء الهاوسا، وأن اليوروبيّين – ذكوراً وإناثاً – يؤدون فريضةَ الحج في سنٍّ متأخرةٍ أكثر من الهاوسا. وتشير الدراسات إلى أن الفروق العُمرية لأداء الحج يقارب أربع سنوات للرجال (43 سنة لليوروبيين مقابل 39 للهاوسا)، وثماني سنوات للنساء (44 لنسوة يوروبا مقابل 36 لنسوة هاوسا).

ويلاحَظ كذلك في حجاج يوروبا أن الإناث أكبر سنّاً بقليل من الذكور، في حين أن حجاج الهاوسا الذكور أكبر سنّاً بكثيرٍ من إناثهم. وفي لاغوس تزيد أعمار الإناث من الحجاج بنحو سنةٍ على أعمار الذكور. وفي كثيرٍ من المناطق تقع الفروقُ العُمرية بين خمس سنوات وثماني سنوات. وفي كادونا لوحظ أن الذكور من الحجاج أكبر سنّاً بنحو ثلاث سنواتٍ في المتوسط من الإناث، وهذا النموذج ينطبق على الأقاليم جميعها (الشكل 8–9).

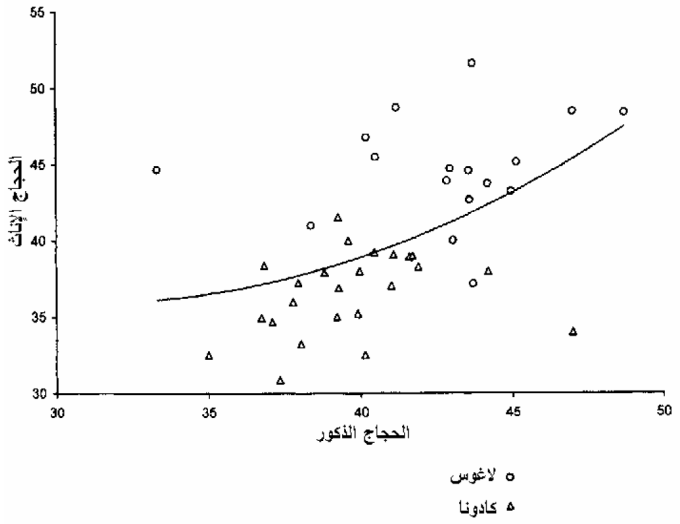

الشكل 8-9 وسطي أعمار الحجيج من الإناث والذكور في الحكومات المحلّية لولايتي لاغوس وكادونا لعام 1999

وقد علمتُ أن اليوروبيين في شمال نيجيريا ينفقون من الأموال على حفلات الزفاف والكرنفالات والمآتم أكثر مما يبذلون في المناسبات الدينية[37]. فليس غريباً على اليوروبيّين إرجاء حجِّهم بسبب الضغوط الاجتماعية التي تضطرّهم إلى إنفاق أموالهم في قنواتٍ أخرى تعود عليهم بتحسين الوضع الأُسَريّ والتكافل الاجتماعي. حتى إن يوروبيِّي إيلورين يعيبون على نظرائهم الجنوبيين أنهم لا يتحرّجون أن يستدينوا بغية الظهور بمظهر الكرم والتباهي بنثر الهدايا، حتى لو لم تكن ثمة قدرة على تحمُّل أعباء ذلك.

وفي جنوب نيجيريا يستهين الهاوسا بالحج ويفرغونه من مضمونه الديني، بتحويله إلى إجازةٍ عائلية ومناسبةٍ للإسراف في التسوُّق؛ وهم يتوجَّهون إلى الحج مرّاتٍ عديدة وفي سنٍّ مبكِّرةٍ جداً، فيشوبون قيمتَه الروحية، ويجعلونه هدفاً لدنياهم على آخرتهم.

ومع ذلك فإن تأكيد مدير الحج في لاغوس على التباين العِرقي لا يُسوِّغ جوانب التفاوت في فعالية الحج في ولايته هو، حيث يؤلِّف اليوروبيّون الأغلبيةَ الساحقة في كل المناطق (الشكل 9.9)؛ فإقبال نساء يوروبا على الحج والتجارة والتعليم أكثر وضوحاً في لاغوس آيلاند حيث لا غنى عن "نساء السوق" في تحريك صغار الملاّك إلى العمل السياسي[38]، إذ تمتد اتصالاتهنّ التجارية إلى المناطق المجاورة، وهذا ما يحمل النساءَ العاملات هناك على السير على مثالهن في إدارة الأعمال التجارية الصغيرة.

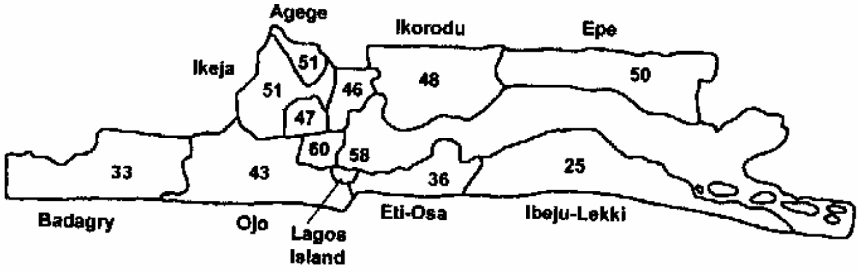

الشكل 9-9 النسبة المئوية للإناث من الحجاج في الحكومات المحلّية لولاية لاغوس سنة 1999

من ناحيةٍ أخرى، فإن الهجرة في المناطق الست الرئيسية تسجِّل معدَّلاتٍ عالية؛ إذ تقع نسبةُ تلامذة المدارس الابتدائية الذين انتقلت عائلاتُهم إلى لاغوس من ولاياتٍ أخرى ما بين 86 بالمئة في شومولو، و 93 بالمئة في لاغوس مينلاند، علماً بأن الإحصاءات تشير إلى أن أكثر من نصف المهاجرين وافدون من ولاياتٍ ثلاث تقع في الجنوب الغربي هي: أوغون (24٪) وأويو (17٪) وأوندو (12٪).[39]

وفي لاغوس الكبرى تسهم الآثارُ التحرُّرية للهجرة في توكيد المنافع التي يجنيها نساءُ يوروبا من البُنى الأُسَريَّة المتكافئة الفرص. وبعيداً عن قيود الحياة في القرية والبلدات الصغيرة، تسنح للنساء المهاجرات فرصٌ كبيرة

للعمل والتعليم والسفر، وهذه الفرص الجديدة تسهِّل على النساء المشاركة في الحج، والحج بدوره يساعد النساءَ المهاجرات وعائلاتهنَّ على التقدّم في مجتمعٍ متحرِّرٍ يعوِّل على مظاهر التقوى والثروة.

إن رغبة النساء المهاجرات في أداء فريضة الحج منوطة بالجهة التي عاشت فيها عائلاتهنَّ قبل الانتقال إلى المدينة. ويشار هنا إلى أن المهاجرين من مختلف ولايات يوروبا قد انتشروا في كلِّ مكان، إلا أن ثمة حالاتٍ كثيرةً للهجرة المستهدَفة، التي تتجمّع فيها عدّةُ أُسَرٍ من ولايةٍ واحدة في مكانٍ واحد. وهكذا ينجذب سكانُ أوغون إلى مواقع وجود المراكز الحكومية في إيكيجا وأغيجي، ويستقرّ المهاجرون من أويو في المناطق التجارية للاغوس مينلاند، في حين يجتمع القرويون من أوندو في الأحياء الفقيرة لمدينة شومولو.

ويتنامى الحجُّ النسائي مع ارتفاع درجة التحضُّر في الولايات التي انحدر منها المهاجرون؛ فتتزايد أعدادُ النساء من الحجيج حيث يوجد تجمُّعاتٌ لمهاجرين من أويو ـ أكثر ولايات يوروبالاند تحضُّراً، وتتضاءل أعدادهنَّ حيث يتجمع المهاجرون من أوندو ـ الولاية الريفية في الجنوب الغربي.

وتتزايد حظوظ النساء في أداء الحج في الأوساط التي تتوفَّر فيها مؤسساتٌ متطورةٌ تبثُّ روحَ الجماعة والانتماء إلى المجتمع، لا حيث تكون مستويات المعيشة في أوجها. انظر إلى مناطق من مثل سيريوليري الواقعة داخل حدود المدينة تجد أنها تمتاز على أكثر الضواحي ازدهاراً في ظاهر أيكيجا، حيث يتعثَّر تطوُّر المؤسسات التعليمية والاجتماعية في مواجهة تدفُّق الوافدين الجدد.

الحج المسيحي: القدس القديمة والقدس الجديدة

تعدّ نيجيريا واحدةً من بضع دولٍ في العالم تتولى فيها الدولةُ نوعين من الحج: واحد للمسلمين وآخر للمسيحيين. وتشترك الحكومة وقادة الكنيسة بدوافع واحدة لمنح الحج المسيحي المكانةَ الاعتبارية الممنوحةَ للحج الإسلامي.

وكان الحصولُ على حجٍّ ترعاه الدولة انتصاراً حقيقياً لأقدم الطوائف المسيحية في نيجيريا. ففي ثمانينيات القرن الماضي شهدَ المسلمون النيجيريون سلسلةً من المدّعين والأفّاكين وهم يقودون آلافاً من الناس إلى حتفهم. وكان يُخشى فعلاً من أن يتمخَّض الأمرُ عن فتنةٍ مشابهةٍ تحيق بالمسيحيين، فجاء القرارُ بدعم الدولة للحج إلى بيت المقدس ثمرةَ جهودٍ مشتركةٍ من الحكومة ورجال الدين لوضع حدٍّ للتوتُّر الذي كان يتهدَّد الكنيسةَ والدولةَ معاً.

ومنذ البداية ظهرت رابطةُ مسيحيي نيجيريا (CAN) كترياقٍ للشخصية المسيحية. فقد حاول الجيشُ والكنائسُ الرئيسية إقصاءَ الحركات البروتستانتية الجديدة التي كانت تطالب بالانضمام إلى الرابطة. وعندما حازت الكنائسُ الجديدةُ القبول كان عليها أن توافق على نظام حصصٍ نسبيةٍ تمنحهم نسبة 20 بالمئة فقط من الأصوات، مقارنةً بـ 40 بالمئة للكاثوليك و 40 بالمئة للأنغليكان والميثوديين والمعمدانيين والمشيخيين والإنجيليين[40].

ازدهرت الكنائسُ الكارزمية (الإيحائية أو الاستلهامية) charismatic churches لأنها قدمت للمسيحيين العاديين ما لم يجدوه في ديانة العصر القديم، وهو الراحة من المعاناة اليومية لمجتمع فقدَ الأملَ والحرية. هذه الكنائسُ الجديدةُ زاخرةٌ بالمعجزات؛ إنها تقدَّم لملايين النيجيريين حلولاً مستلهمةً من السماء للأزمات التي تلامس كلَّ جوانب الحياة الشخصية والعائلية. وقد وَعَدَ كَهنةُ هذه الكنائس بتحقيق مكاسب نفيسة ـ لا "خلاصاً" في الآخرة، بل "إلهاماً" في الدنيا، علماً بأن كثيراً من الكنائس الجديدة تمزج الشفاءَ الرُّوحيَّ بسحر الثروة والنجاح: "إن الذين يقصدون وجه الله سينالون الثروةَ والسلطةَ أيضاً."

وكان من شأن الحج الذي ترعاه الدولة إلى بيت المقدس أن يوطِّئ للمسيحيين مجالاً آخر للنزاع؛ فتعدُّد الطوائف أدّى إلى وقوع شقاقٍ مستمر بشأن تحديد الجهة التي تدير الحج، والجهة التي تستأثر بأكبر الأعداد من الحجيج.

بل إن رجال الكنيسة مختلفون حتى في تعريف الحج والوقوف على معناه وفضائله العملية.

إن النزاعَ بشأن الحج المسيحي سياسيٌّ أكثر منه عقائدي؛ فرجال الكنيسة النيجيريون يدعمون الحج أو ينتقدونه تبعاً لتصوُّرهم لمدى تأثيره في النفوذ الكنسي بالنسبة إلى الطوائف المتنافسة من جهة، والإسلام من جهة أخرى. إن نظام الحج المسيحي الحالي هو نتاج عدة تسويات بين الطوائف المسيحية، التي ليس لأيٍّ منها علاقةٌ حقيقيةٌ بها.

ومع أن كثيراً من الكنائس الجديدة تدعم الحجاج، فإنها مازالت تعبِّر عن تناقضٍ في مفهومها لقيمة الحج. ومن أقوى الانتقادات التي سمعتُها تلك التي طرحها أحد المبشِّرين البروتستانتيين في برنامجه التلفزيوني الأسبوعي "لحظة الحقيقة" عندما قال: "إن حجاج بيت المقدس لا يدركون أن ثمة قدساً جديدة متمثلة بالكنيسة، غير محدودةٍ بمكانٍ أو زمان."

والقدس الجديدة - كما يراها - هي تعبيرٌ مجازيٌّ عن الدروس والعِبَر المستمدَّة من الإنجيل، تلك الدروس التي لا بدَّ أن يدرك المسيحيون حقيقتَها وفقاً لزمانهم وظروفهم. وأضاف: "لم يكن للقديس بطرس رأيٌ خاصٌّ بقضايا من قبيل الديمقراطية أو الشيوعية أو الإجهاض، ومن ثم فلن يصل الحجاجُ إلى حقائق عن هذه المسائل في القدس القديمة ولا في أية رحلةٍ إلى الماضي."

ولا تقتصر الخلافاتُ فيما يتّصل بالحج المسيحي على رجال الدين، بل تمتد إلى العامة من الناس، ولاسيما أولئك الباحثين عن ذريعةٍ لتصفية حساباتٍ قديمة؛ فقد التقيتُ في أبوجا مجموعةً من المسيحيين يتجادلون، وكادت المشادّةُ تتحوَّل إلى تبادلٍ للّكمات بعدما ادّعى أحدُهم أن كلَّ مَن عرفهم من حجاج بيت المقدس هم أفّاكون بعيدون عن الفضيلة.

لم يَحُلّ هذا الجدل المتطاول دون انتشار الحج المقدسي من شتى أنحاء نيجيريا. ومع ذلك فإن هذا الحج على كلٍّ حال لا تتجاوز معدّلاتُه سُبُعَ معدّلات الحج الإسلامي، وهو أكثر تشتُّتاً من الناحية الجغرافية من الحج

الإسلامي[41] (الجدول 9-5A والشكل 10–9). وفي حين تقلَّصَ نشاطُ الحج الإسلامي إلى حفنةٍ من الولايات، تنامى الحجُّ المقدسيُّ للمسيحيّين ليشمل كلَّ مكانٍ بين لاغوس وباوتشي.

وإذا تأملتَ خريطةَ الحج المسيحي اليوم، بدتْ لكَ شبيهةً إلى حدٍّ بعيدٍ بما كان عليه الحجُّ الإسلاميُّ على مستوى البلاد في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، قبل أن يحصر الحكّامُ العسكريون الحجَّ الإسلاميَّ في مناطقهم المفضَّلة في الشمال. ومَنْ يدري، فلربما أصبح اتّساع رقعة الحج المقدسيّ عاملاً موحِّداً جامعاً في يومٍ من الأيام، ولربما ساعدَ الحجُّ الذي تسبَّبَ يوماً في كثيرٍ من الجدل والخلاف بين المسيحيين في نيجيريا على تخفيف حدَّة التوتُّر الإقليمي والطائفي الذي فرَّقهم أيدي سبا على مدى أجيالٍ عديدة.

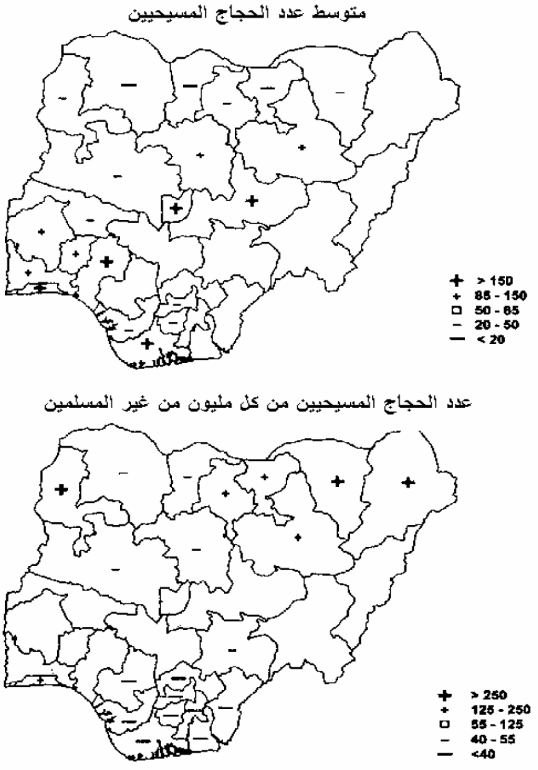

الشكل 9.10 الحج المسيحي في ولايات نيجيريا ما بين عامي 1995 و 1998

يتركَّز نشاطُ الحج المقدسي في المناطق التي لا تسود فيها المسيحيةُ ولا الإسلام؛ فثلثا الحجاج المسيحيين يقيمون في يوروبالاند والحزام الأوسط حيث يعيش المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب. وتعدُّ هذه المناطق وما جاورها أكثرَ المناطق تنوُّعاً دينياً، ويتمازج فيها الحجُّ المسيحي والحج الإسلاميُّ بدرجةٍ تنافسية (الشكل 9-1A).

ويتخلَّف الحجُّ المقدسيُّ (المسيحي) عن الحجِّ المكِّيِّ (الإسلامي) في جُلِّ مناطق نيجيريا، إلا أن الفجوة آخذةٌ في التضيُّق في منطقتي يوروبالاند والحزام الأوسط. وهاتان المنطقتان تمثِّلان معتركَيْن لتصادُم المرشدين والوعّاظ المسيحيين والمسلمين وجهاً لوجه، وتقوم أبوجا بتمويل كلا الحجَّيْن المتنافسَيْن. ويبلغ التنافسُ أوجَهُ في أبوجا وبلاتيو بنوعٍ خاص، أي في المناطق القريبة من قلب البلاد الجغرافي. ويلاحَظ أن العاصمة الفدرالية، وكذلك مدينة جوس هما مجتمعان مختلطان يسهم الحجُّ فيهما في إثارة نوازع العداء بين المسلمين والمسيحيين.

وتتزايد مظاهر التوتُّر الديني في أبوجا إلى درجةٍ تجعل السكانَ يقرؤون دلالاتٍ دينيةً غير معلنة حتى في أسلوب تخطيط المدينة وهندستها العمرانية؛ فقد أخبرني رجلُ أعمالٍ مسيحيٌّ أنه لا يَستحسن مظهرَ بناء المجلس الوطني، لأنه على قناعةٍ بأن قبَّته الخضراء البديعة قد صُمِّمت على مثال مسجد. واستنتجَ أن الهيئة التشريعية إذا اجتمعت في موقعٍ يحاكي في مظهره مسجداً، فقد يغريها ذلك على سنِّ قوانين أميل إلى الشريعة الإسلامية.

وبالمثل، ساعدني يوماً موظفٌ مسلمٌ في العثور على عنوانٍ مبهم، فلم تخلُ نصيحتُه من مَغْمَزٍ سياسيٍّ عندما قال إن من السهل التجوال في مدينة أبوجا لأنها مصمَّمةٌ على محورين يتقاطعان قرب المجمَّع الحكومي، وأضاف: "تذكَّر فقط أن أبوجا قد بُنيت على أرضٍ مسيحية، فلا غرو أن يجعلوها على شكل صليب."

وفي جوس تتبدّى رمزيّةُ التنافس الديني أكثرَ رسوخاً في حياة الناس اليومية. فمن المعروف أن سوق البلدية هو مركز اقتصاد المنطقة وأنموذجٌ للنظام التجاري، يتوقَّف فيه العملُ كلّياً في منتصف النهار ليؤدي المسلمون صلاة الظهر في المسجد المجاور، وليعقد المسيحيون حلقاتٍ للتراتيل من الكتاب المقدس داخل السوق. ومع إغلاق المسلمين لحوانيتهم يتبادلون بعض كلمات السِّباب مع المسيحيين الذين يمرُّون بهم. ألا ترى أن وقت الظهيرة في جوس مظهرٌ مؤثِّرٌ ومثالٌ ناطقٌ للمودّة والتضامن – ولكن بين أبناء الدين الواحد فقط!

قد تبدو نيجيريا مغاليةً في تشجيع سياسات الحج التي من شأنها أن تذكي نارَ الانقسامات العِرقية والإقليمية، إلا أنها لم تكن يوماً بِدْعاً في ذلك؛ فقد تبيَّن لنا من البلدان التي درسناها أن الساسةَ غالباً ما يتعاملون مع الحج على أنه وسيلةٌ لمكافأة المؤيِّدين وتقريبهم، واستبعاد المناوئين. ولعلَّ أعظمَ مفارقةٍ للحج الحديث قدرتُه العجيبة على صَهْر الفروق بين المسلمين من مختلف الأصقاع والألوان والمشارب وهم في الديار المقدَّسة، مع أن هذه الفروق تظهر واضحةً للعيان وهم في أوطانهم. وسنرى في الفصل الأخير من هذا الكتاب كيف ينجح مديرو الحج في تحقيق مثالياته في مضمار العلاقات الدولية أكثر مما يحقِّقون من ذلك على الساحة المحلّية.